توكيديدس

للدكتور ابراهيم نصحي
الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة الليبية

لم يكن الاغريق أول من سجلوا أحداث الماضي وان كانوا هم الذين خلقوا التاريخ بالمعنى الذي يفهمه المحدثون ، ولم يكن توكيديدس (Thukydides) أول المؤرخين الاغريق وإن كان أول من كتبوا تاريخهم المعاصر على الاطلاق . ومدلول كلمة historia الاغريقية كان أصلاً البحث في ظواهر الطبيعة. وتبين أن هكتايوس (Hecataeus) الملطي (نسبة إلى مدينة ملطية أو « ميلتوس » الأيونية على شاطئ الأناضول) كان أول من نقل « البحث » من ميادين الطبيعة بوجه عام إلى ميدان واحد بعينه وهو العالم المأهول : أقاليمه وسكانه . وكان عمل هكتايوس — في أواخر القرن السادس وأوائل الخامس قبل الميلاد — مرحلة هامة في القضاء على ما كان مألوفاً عند الاغريق من رواية أحداث الماضي بكل ما تتضمنه من قصص وأساطير وتناقض واضطراب ، وفي نشأة التاريخ الذي يجمع المعلومات المتوارثة عن أمم العالم ويرويها بعد

بحثها وتمحيصها قدر المستطاع [1] .

وقد خطا هذه الخطوة هرودوتوس ، وهو الذي اقتفى أثر هكتايوس في تناول الاقاليم والشعوب بالدراسة باعتبار أنها جميعاً تؤلف وحدة واحدة ، غير أن هرودوتوس وجه جل اهتمامه إلى دراسة الشعوب . ويستهل هرودوتوس « تاريخه » — وهو يقع في تسعة كتب — بقوله انه يهدف إلى كتابة تاريخ الصراع بين الاغريق والفرس . وقد مهد لقصة هذا الصراع منذ بداية الثورة الأيونية في عام ٥٠٠ — ٤٩٩ ق. م. حتى فشل غزوة اجزركس في عام ٤٨٠ — ٤٧٩ ق . م . باستعراض منشأ الصراع بين الشرق والغرب ووصف قيام الامبراطورية الفارسية وكذلك قيام أكبر دولتين اغريقيتين : أثينا واسبرطة . ومن اليسير على من يتصفح « تاريخ » هرودوتوس أن يتبين :

أولاً — ان ما كتبه هرودوتوس بوصفه تاريخاً للصراع بين الاغريق والفرس عبارة في واقع الأمر عن تاريخ الشرق الأدنى .

ثانياً — انه يتخلل هذا التاريخ استطرادات كثيرة قد تطول أحياناً وقد تقصر أحياناً أخرى ، وهي تدور حول وصف البلاد وأهليها .

ثالثاً — انه يتضمن السائد من المعلومات أو المعتقدات عن الوقائع القريبة أو البعيدة بل عن الدنيا بوجه عام على نحو ما كانت معروفة لدى الاغريق عندئذ .

---

(١) راجع :

Pearson L., Early Ionian Historians, Ch. 2 (Bibl., pp. 106-8); Cary, M. and Haurhoff Life, and Thought in the Greek and Roman World, 1957, p. 196; Rose, H.J. Handbook of Greek Literature, 1956, pp. 296-7; Stoburt, J.C., The Glory That Was Greece, 1960, p. 136.

رابعاً – ان هذا التاريخ يتناول عدداً كبيراً من الموضوعات المتباينة ، ويستمد مادته من مصادر متعددة ، ولذلك فهو يجمع بين الحقائق الممحصة والمعتقدات الشعبية والروايات المتواترة وأدلة الشهود العيان .

ولا جدال في أن هرودوتوس بذل جهداً في تمحيص ما تناهى اليه من المعلومات ، بدليل أنه كثيراً ما تطالعنا في « تاريخه » هذه العبارة « يقول الناس ذلك ولكنني لا أصدقه » . وحيثما كان يدق عليه تبين وجه الحقيقة نجده يقول « لما كنت لا أدري ما قد تكون الحقيقة ، فانني أروي القصة على نحو ما رويت لي » . بيد أنه كان لا يرى سبيلاً إلى مناقشة ما يصل إلى علمه من النبوءات التي كانت تصدر عن مراكز الوحي المعروفة حتى لو كان فحواها ينم بجلاء عن زيفها . وإذا كان جزل العبارة قديراً على الوصف ، فانه كان أقل قدرة على التفرقة بين الغث والسمين من المعلومات في أحيان كثيرة ، وعلى التحليل الدقيق وعلى فهم كنه الأحداث السياسية وأبعادها في أكثر الأحيان .

ولقد أوذيت سمعة هرودوتوس أذىً بليغاً نتيجة لما طرأ في اللغات الأوروبية الحديثة من تطور على مدلول الكلمات المأخوذة عن الاغريقية مثل كلمة mythos ، فهذه الكلمة معناها في الاغريقية قصة قد تكون حقيقية وقد لا تكون ، أما كلمة myth في اللغات الأوروبية الحديثة فمعناها أسطورة ، وكلمة أسطورة تعني ضمناً قصة غير حقيقية . ولما كان « تاريخ » هرودوتوس يتضمن قصصاً كثيرة ، فقد وصف هذا التاريخ بأنه محشو بالأساطير ، ووصف هرودوتوس بأنه ساذج أو كاذب ، أو راوية ثرثار يحدوه الأمل في أن يخدع قراءه أو سامعيه بالسهولة نفسها التي خدعه بها أولئك الذين استمد منهم معلوماته . بيد أنه من الانصاف لهرودوتوس أن نسجل أن البحث الحديث قد أثبت أن

القيمة التاريخية لمحتويات « تاريخه » تختلف لا من كتاب إلى كتاب فحسب بل من فقرة إلى فقرة وجملة إلى جملة بل من سطر إلى سطر ، ولذلك فان التعميم في الحكم على هذا التاريخ يكون ضرباً من المجازفة غير المقبولة علمياً .

ولعله من أخطر ما يؤخذ على هرودوتوس ميله إلى تفسير الأحداث بعاملين رئيسيين ، أحدهما العواطف والرغبات الشخصية وبوجه خاص دور المرأة ، والآخر الارادة الإلهية ، أو بهذين العاملين معاً حتى ليبدو على حد قول البعض وكأنه قد جعل شعاره : ابحث عن المرأة ولا تغفل الله (Cherchez la femme et n'oubliez pas le dieu) غير أنه تجب الإشارة هنا إلى أن كثرة التجاء هرودوتوس إلى تفسير الأحداث بتداخل الآلهة في تقرير مصائر البشر يعكس بجلاء النظرة الاغريقية إلى حياة الناس ، فقد كانوا يعتبرون مصائر الأفراد والجماعات مجالاً لتحقيق العدل الإلهي . فالإرادة الإلهية في نظرهم دائبة العمل سواء للانتقام ممن أوتوا قدراً وفيراً من الحظ السعيد والرفاهية البالغة فملكهم الغرور والصلف ، أم لتحقيق العدالة الأبدية بمعاقبة المسيئين على ما ارتكبوا من شرور وآثام . وان هذه المعتقدات التي نلقاها في كل العصور لتحتل مكاناً بارزاً في تاريخ هرودوتوس يماثل المكان الذي تحتله في التراجيديا الاغريقية . وقصة كل من كرويسوس وبوليقراطس وقمبيز واركسيلاوس الثالث وسقوط طروادة على نحو ما أوردها هرودوتوس خير مثل على ذلك .

ومن الواضح أن هرودوتوس اتخذ من كتابة التاريخ على هذا النحو وسيلة لبث قواعد الأخلاق الفاضلة ، ولذلك فانه يجوز اتهام هرودوتوس بتحريف الحقائق عمداً ليخرج منها بمغزى خلقي ويجعلها مشوقة وأفعل أثراً في النفس . وبطبيعة الحال ليس هذا الضرب من التأليف تاريخاً ،

فالمؤرخ يجب أن يتحرى الدقة قبل كل شيء ، وأن يتجنب المساس بالحقائق ، وان كان له أن يفسرها كما يتراءى له . بيد انه إذا كان « تاريخ » هرودوتوس يتضمن الكثير مما لا يمكن اعتباره تاريخاً جدياً ، فانه ليس معنى ذلك أنه يمكن اعتبار كل هذا التاريخ غير جدي ، بل يجب أن نحكم على كل قصة بل كل عبارة فيه وفقاً لقيمتها الذاتية [١] .

وجملة القول إن هرودوتوس كان كاتباً موهوباً ، واسع الأفق ، ذكي الفؤاد ، طلي الذوق ، شغوفاً بتسجيل الطريف والغريب ، بارعاً في الوصف ، قديراً على صياغة ما يسمعه من القصص بأسلوب عذب فياض يستأثر بانتباه السامع فيستحوذ عليه وينتزع منه الاعجاب انتزاعاً ، لكن هرودوتوس لم يوجه قدراً كافياً من العناية إلى دقة التفاصيل وتواريخ الأحداث وتحليل الأخبار ونقدها والتفرقة بين الحقائق والأساطير . وبرغم ذلك كله فانه خليق بمكان ملحوظ في تاريخ الانسان والحضارة ، فهو كما وصفه شيشرون « ابو التاريخ » [٢] ، لأنه أول من عالج التاريخ لا بوصفه مجموعة حكايات شائقة عن الآلهة والبشر وإنما بوصفه موضوع بحث علمي ، ولأنه هو الذي خلق فلسفة التاريخ ، وان كانت فلسفته بدائية ترجع أصداء الأفكار السائدة بين أواسط الناس في عصره .

* * *

(١) راجع :

Godley, A.D., Herodotus, Loeb Class. Lib., 1956-7, Introd.; Myres, J.L., Herodotus, Father of History, 1953, pp. 17ff.; Macan, Herodotus and Thucydides, C.A.H., vol. V, 1953, pp. 398 ff. (Bibl. pp. 520 ff); Bonnard, A., Greek civilization, tran. by A. Lytton Sells, 1959, pp. 125 ff; Finley, M.I., The Greek Historians, pp. 4 ff., Voegelin, E., Order and History, II, 1957, pp. 37 ff., 332 ff. (Louisiana State Un. Pr.)

(٢) Cicero, de legibus, I, 5, 1.

وحين كان هرودوتوس العجوز يصقل « تاريخه » ، كان العالم الاغريقي يستقبل عصراً جديداً من الصراع يتطلب مؤرخاً تدب فيه روح ذلك العصر الذي انتشر فيه التعليم إلى حد أن كل مواطن أثيني كان يستطيع القراءة والكتابة ، وبلغت فيه الثقافة مستوى لم يعرفه العالم القديم من قبل. والواقع أن فجوة واسعة كانت تفصل هرودوتوس عن الجيل الذي يلتف حول بريكلس — هي فجوة أحدثتها الثقافة التي نشرها أعلام السفسطائيين. وبرغم أن تلاميذ انكساجوراس وبروتاجوراس كانوا يتباينون تبايناً واسعاً في معتقداتهم وأهدافهم ، فانه كان يجمعهم مبدأ مشترك يقول بأن التفكير يجب أن يكون جلياً واضحاً وأن قوة العقل هي أسمى القوى وأفعلها أثراً . ومن ثم فانه إذا لم تكن تفصل إلا سنوات قلائل بين اليوم الذي انتهى فيه هرودوتوس من تصنيف « تاريخه » واليوم الذي بدأ فيه توكيديدس كتابة « تاريخه » ، فان هناك فارقاً هائلاً وبوناً شاسعاً بين هذين المؤرخين سواء في طريقة التفكير وفي طريقة كتابة التاريخ [1] ، ذلك أن المواطن الأثيني توكيديدس كان من بين أبناء الجيل الجديد الذين تأثروا بمن سلفت الاشارة اليهم من أعلام الفكر .

وقد وصلت الينا من العصور القديمة ثلاثة تواريخ لحياة توكيديدس [2] . ويستوقف النظر على الفور أن هذه التواريخ تتضارب مع بعضها بعضاً حول تفاصيل حياة مؤرخنا ، فهي لا تلتقي عادة إلا حينما تعتمد على ما أورده توكيديدس من إشارات عابرة إلى شخصه في مؤلفه . ويمكن الحصول على معلومات اضافية عن حياة توكيديدس من فقرات متفرقة

١ Murray, G., History of Greek Literature, p. 179.

٢ يحمل أحد هذه التواريخ اسم فقيه يدعى مركلينوس لعله كان صاحب شرح رسالة السفسطائي هرموجنس « عن الصراع الحزبي » . ويبدو أن مركلينوس كان يعيش في القرن الخامس الميلادي . وصاحب التاريخ الثاني فقيه لا يعرف اسمه . وأما التاريخ الثالث فانه عبارة عن فقرة موجزة بعنوان توكيديدس كتبها في القرن العاشر الميلادي أحد مؤلفي المعاجم وكان يدعى سويداس .

في كتب عدد من الكتّاب القدماء المتأخرين مثل ديونيسيوس الهليكرناسي [1] وبلوتارخ [2] وباوسانياس [3] . ومع ذلك فانه ليست لدينا حقائق يمكن الوثوق بها عن حياة توكيديدس إلا القليل الذي نستمده من مؤلّفه حيث يقول إنه ابن اولوروس (Oloros) [4] ، وإنه بدأ في جمع المادة اللازمة لمؤلفه عند بداية الحرب البلوبونيزية [5] ، وإنه عاش طوال الحرب متتبعاً مجراها بعناية شديدة ليتسنى له الحصول على معلومات دقيقة وكان له من السن ما يمكنه من تكوين آراء ناضجة [6] ، وإنه مرض بالطاعون [7] (وهو الذي اجتاح أثينا في عام ٤٣٠ ق. م.) ، وإنه كان أحد القائدين اللذين انتخبهما الأثينيون لقيادة حملة في تراقيا [8] — حيث كان لديه ترخيص باستغلال بعض مناجم الذهب هناك [9] — لكنه فشل في انقاذ مدينة أمفيبوليس من الوقوع في قبضة القائد الأسبرطي برسيداس [10] ، فقرر الأثينيون نفي توكيديدس (في عام ٤٢٤ ق. م.) وبقي في المنفى عشرين عاماً وبذلك أتيحت له فرصة الوقوف على كافة أحوال الفريقين المتحاربين [11] .

أما باقي معلوماتنا عن توكيديدس فانها تعتمد إلى حد كبير على الاستنباط ، وإذا كان بعضها يكاد أن يكون مؤكداً فان الأمر ليس كذلك فيما يخص البعض الآخر . ويتبين مما كتبه مركلينوس [12] أمرٌ يبدو محتملاً وهو أن قرار نفي توكيديدس كان بناء على اقتراح كليون وكان عندئذ في أوج سطوته وقوته بوصفه من أقطاب الساسة الأثينيين . ويحتمل كذلك أن التهمة التي وجهت اليه كانت الخيانة على نحو ما يذكر

(1) Dion. Hal. De Tucyd. historia indicum; The Second Letter to Ammaeus (Ep. Amm.).
(2) Plut., Cimmon, IV.
(3) Pausan. I, 1, 32.
(4) IV, 104, 4
(5) I, 1,1.
(6) V, 26, 1.
(7) II, 48, 3.
(8) IV, 104, 4
(9) IV, 105, 1
(10) IV, 106.
(11) V, 26, 5.
(12) § 46

مركلينوس [1] والفقيه الذي كتب تاريخ حياة توكيديدس ولا نعرف اسمه [2] ، وهو ما يبدو أنه تنم عنه عبارة اريستوفانس في رواية « الزنابير » [3] . ولم يرق الشك عند أحد من الباحثين المحدثين إلى إخلاص توكيديدس لوطنه ، لكنه ما أيسر ما كانت التهم تكال جزافاً في أثينا ولا سيما لقائد لم يواته التوفيق ! والواقع أن فشل توكيديدس في انقاذ أمفبوليس يجب أن يتحمل تبعته الأثينيون أنفسهم لأنهم بدلاً من اتخاذ ترتيبات كافية للدفاع عن تراقيا أمام تحركات قائد في مثل براعة برسيداس – وكان أمهر القواد الأسبرطيين – شغلوا بشؤون حملة غير موفقة ضد بيوتيا [4] . ولما كان توكيديدس يدرك أن مواطنيه سيركبون رؤوسهم كعادتهم كلما أصابتهم هزيمة وينزلون نقمتهم بالقائد دون تحري الأسباب الحقيقة ، فانه آثر عدم العودة لوطنه . وعندما قرر الأثينيون نفي توكيديدس لم يزد على اثبات هذا القرار في « تاريخه » دون أن يتوقف عنده للدفاع عن نفسه أو لمؤاخذة المسؤولين عما حدث . ويبدو أنه بعد صدور هذا القرار قضى توكيديدس جانباً كبيراً من وقته في التنقل من مكان إلى آخر سعياً وراء جمع المعلومات عن سير الحرب . ومعرفته الوثيقة بالأماكن التي يصفها في أثناء الحديث عن حملة صقلية توحي بأن هذه الجزيرة كانت بين الأماكن التي زارها [5] . ويحدثنا باوسانياس بأن قرار استدعاء توكيديدس من المنفى كان بناء على الاقتراح الذي تقدم به المواطن الأثيني أوينوبيوس [6] ، ويرجح أنه كان ابن يوكلس زميل توكيديدس في قيادة حملة تراقيا (عام ٤٢٤) [7] .

---

(1) § 55 (2) § 2 (3) Arist., Vesp. 288

(4) Bury, Hist, of Greece, 1941, p. 448; Voegelin, op. cit., p. 349.

(5) Shotwell History of History, Col. Un. Press, p. 195; Rose, Handbook of Greek Literature, 1956, p. 303.

(6) Paus. I, 23,9

(7) Smith, C.F., Thucydides, Loeb Cl. Lib., vol. I, Introd., p. x.

وقد كان اسم والد توكيديدس يماثل اسم أمير تراقي كان يدعى أيضاً اولوروس ، وكانت هجسّيبولي (Hegesipyle) ابنة هذا الأمير قد تزوجت الزعيم الأثيني المشهور ميلتيادس والد الزعيم الأثيني كيمون . ويحدثنا بلوتارخ بأن مقبرة توكيديدس كانت توجد في إحدى ضواحي أثينا بالقرب من مقبرتي هذين الزعيمين [1] . وإذا صح ما يرويه مركلينوس من أن والدة توكيديدس كانت تدعى هجسيبولي مثل والدة كيمون ، ومن أن أسرة توكيديدس كانت تمتلك مناجم ذهب سكابتي هولي (Scapte Hyle) بتراقيا [2] — ويؤكد ذلك ما يرويه مؤرخنا من أنه يتمتع بحق استغلال بعض مناجم الذهب في تراقيا — فانه لا يبعد أن والد توكيديدس كان أحد أقارب سميه الأمير التراقي اولوروس وأن توكيديدس كان من ذوي قربى كيمون وإن كان أصغر من هذا الزعيم بنحو من جيل [3] . وإذا كنا لا نستبين من عبارات بلوتارخ المبهمة [4] هل ورث توكيديدس المناجم التراقية ، فان مركلينوس يقول صراحة إنها كانت ملكاً لزوجته [5] .

وتتضارب مصادرنا حول تاريخ ميلاد توكيديدس ، ذلك أن مركلينوس يقول إنه عندما توفي توكيديدس كان قد نيف على الخمسين من عمره [6] . وهذا لا يتفق مع ما أورده اولوس جليوس [7] (Aulus Gellius) نقلاً عن سيدة تدعى بامفيلا عاشت في عصر نيرون (٥٤ — ٦٨ م) وشغفت بالقراءة والبحث وبتدوين ثمار قراءتها فجمعت قدراً كبيراً من المعلومات ونشرتها (Symmikta historika hypomnemata) وقد نقل اولوس جليوس عن بامفيلا أنه عند بداية الحرب البلوبونيزية

---

(1) Plut., Cim., IV. (2) § 2

(3) J.H.S., 52, p. 210.

(4) Plut., Cim., IV. (5) Marcell., 19. (6) Marcell., 34.

(7) A. Gell., Noctes Atticae, XV, 23.

كان المؤرخ الموتيليني هلانيقوس يبلغ الخامسة والستين من عمره وهرودوتوس الثالثة والخمسين وتوكيديدس الأربعين . ومعنى ذلك أن يكون توكيديدس قد ناهز السبعين عند وفاته . ولا يساعد على ترجيح أحد هذين المصدرين على الآخر ما يرويه توكيديدس نفسه من أنه بدأ في جمع مادة تاريخه عند بداية الحرب [1] وكان له من السن ما يمكنه من تكوين آراء ناضجة [2] . وازاء ذلك يرى بعض الباحثين أن توكيديدس ولد حوالى عام ٤٦٠ ق. م. على حين أن البعض الآخر يرون أنه ولد حوالى عام ٤٧٠ . والواقع أنه من العسير في ضوء معلوماتنا الحالية تفضيل أحد هذين الرأيين على الآخر .

وتؤكد المصادر القديمة أن توكيديدس توفي فجأة ، ويبدو أنه يؤيد ذلك انتهاء « تاريخه » فجأة على نحو ما سنتبينه فيما بعد ، ولا يُعرف على وجه اليقين إذا كان توكيديدس قد صرعه لص أرداه قتيلاً أم أنه توفي عقب مرض نزل به وقضى عليه ، ذلك أن بلوتارخ يحدثنا بأنه قتل في سكابتي هولي بتراقيا [3] ، بينما يقول باوسانياس أنه قتل في أثناء الرحلة إلى أثينا [4] ، على حين أن مركلينوس يقول إنه مرض عقب عودته من المنفى وتوفي في أثينا [5] حيث دفن [6] . ولعل هذا هو الأرجح بدليل الوثائق التي يبدو أنه أضافها إلى النص بعد عام ٤٠٤ ق. م. وسواء ألقي توكيديدس ربه قتيلاً أم مريضاً ، وسواء أحدث ذلك في تراقيا أم في أثينا أم في الطريق اليها ، فان قوله « انني نفيت من وطني لمدة عشرين عاماً بعد ما توليت القيادة في امفيبوليس » [7] يدل على أنه عمّر إلى ما بعد انتهاء مدة نفيه . وكل ما يمكن الذهاب اليه دون شطط

(1) I, 1,1 (2) V, 25, 5.
(3) Plut., Cim., IV (4) Paus., I, 23, 9. (5) Marcell., 10.
(6) Cf. Classen, Thucydides, 3rd ed., Introd., p. XXXI.
(7) V, 26, 5.

في هذا الصدد هو أن توكيديدس توفي حوالى عام ٤٠٠ ق.م.[١] .

ولا نعرف شيئاً عن توكيديدس في حداثته إلا القصة الطريفة التي رددها كثير من الكتّاب القدماء[٢] ، وفحواها أن توكيديدس عندما كان لا يزال صبياً وسمع هرودوتوس وهو يتلو على الناس جزءاً من «تاريخه» في اوليمبيا أثاره ما سمع إلى حد أنه بكى لفرط تأثره ، وعندئذ قال هرودوتوس مخاطباً والد توكيديدس : «اولوروس ان عقل ابنك يتأجج بحب المعرفة .» بيد أن لوكيانوس لا يشير إلى ذلك وهو يصف ما كان لتلاوة هرودوتوس في اوليمبيا من أثر قوي في الناس[٣] . وعلى كل حال فانه إذا كان توكيديدس لم يستمع إلى هرودوتوس في اوليمبيا ، فلا بدّ من أن يكون قد عرفه فيما بعد في أثينا . وأما فترة شباب توكيديدس وصدر رجولته فقد كانت معاصرة للوقت الذي كانت فيه أثينا وفيرة الغنى في عظماء الرجال من أمثال بريكلس وبروتاجوراس وسوفوكلس ويوربيدس واريستوفانس ، والخطيب أنتيفون ، والفنانين فيدياس وبوليجنوتوس واكتينوس وكاليكراتس . ولا جدال في أن الحياة في بيئة تزخر بكل هؤلاء الأعلام ، والافادة من ثمار مثل هذه القرائح الوقادة ، خير ما يفسر نضوج عبقرية توكيديدس وازدهارها . وازاء وجود بعض وجوه الشبه بين أسلوب توكيديدس وأسلوب انتيفون قيل إن توكيديدس تتلمذ على هذا الخطيب المفوه ، وهو الذي أشاد مؤرخنا في «تاريخه» بقدرته الخطابية ، كما قيل أيضاً أن توكيديدس درس الفلسفة على انكساجوراس[٤] .

ولا أدل على مكانة توكيديدس عند القدماء من قول لوكيانوس إن

---

(1) Cf. Christ-Schmidt, Gesch. gr. Literatur, I, pp. 481-2, Smith, op. cit., p. XI.

(2) Suidas s.v. organ; Thucydides; Photius, Bibl., 60; Marcell., 64.

(3) Lucian., Herod., 1.

(4) Marcell., 22; Plut., Orat., 832 e.

ديموستينس نقل بخط يده «تاريخ» توكيديدس ثماني مرات [1] . فلا عجب أن قد حاول تقليده والنقل عنه كثيرون من المؤرخين المتأخرين مثل ديون كاسيوس وفيليستوس واريانوس وبروكوبيوس وتاكيتوس وكوينتيليانوس. وأما اعجاب المحدثين بتوكيديدس فأنه لا حد له وحسبنا أن ماكولي كان يعتبره أعظم المؤرخين على الاطلاق ، وأن جون ستيوارت ميل ذهب إلى حد القول بأنه لعل وصف النكبة التي صادفتها أثينا في صقلية أعظم عمل نثري في أدب اللغات كافة [2] .

* * *

والآن سنستعرض أولاً في ايجاز الموضوعات التي تناولها توكيديدس في «تاريخه» قبل أن ننتقل إلى الحديث عن طريقته في التأليف ومنهجه في البحث والمصادر التي استمد منها معلوماته وأبرز صفاته ومميزاته ثم نردف ذلك بتعقيب يسير .

وتوكيديدس هو صاحب تاريخ الحرب البلوبونيزية ، تلك الحرب الضروس التي اشتبكت فيها أثينا وحلفاؤها من ناحية ، واسبرطة وأغلب أهل البلوبونيز (شبه جزيرة المورة) وحلفاؤهم من ناحية أخرى ، ومن ثم فان هذه الحرب شملت كل العالم الاغريقي تقريباً ، بل إن الفرس أسهموا فيها إسهاماً كان له أثره في انهائها بعد أن دامت سبعة وعشرين عاماً (منذ عام ٤٣١ حتى عام ٤٠٤ ق. م.) . وقد استهل مؤرّخنا مؤلفه بقوله «إن توكيديدس الأثيني كتب تاريخ الحرب الي اشتبك فيها البلوبونيزيون مع الأثينيين ، وانه بدأ هذا العمل منذ امتشق الفريقان الحسام لاعتقاده أن هذه الحرب ستكون أعظم من أي حرب سابقة

(1) Lucian., Adv. Indoct., 102.

(2) Smith, op. cit. pp. XV, XVI.

واقتناعه بأن الفريقين كانا في أوج قوتيهما الحربية وأن باقي الاغريق لن يقفوا بمعزل عن الصراع دون الانضمام إلى جانب أو آخر ، ذلك أنه لم يسبق لأية « حركة » ان أثارت عواطف الأغريق إلى هذا الحد ، بل إنه قد شاركهم في ذلك كثير من الأجانب . ويمكن القول بأن آثار هذه الحرب قد امتدت إلى العالم أجمع . وبسبب انقضاء الزمن لا يمكن الجزم بطابع الأحداث التي سبقت هذه الحرب سواء مباشرة أو بأمد بعيد ، لكنه استناداً إلى الادلة التي في وسعي الوثوق بها بعد الامعان في فحصها يبين لي أن العصور الغابرة لم تكن عظيمة سواء في حروبها أو في أية ناحية أخرى من نواحيها . » [1]

وبعد أن يقدم توكيديدس لتاريخ الحرب البلوبونيزية بمقدمة موجزة لتاريخ بلاد الاغريق منذ عصر مينوس ملك كريت حتى الحروب الفارسية [2] ، يقف هنيهة لينقد منهج المؤرخين السابقين ، ومن بينهم بطبيعة الحال هرودوتوس ، دون أن يذكر اسم واحد من أولئك المؤرخين ، وهم الذين يأخذ عليهم أنهم لا يفرقون بين الغث والسمين ويميلون كثيراً إلى تصديق الروايات القديمة سواء عن أوطانهم أو عن الأوطان الأخرى دون تمحيصها أو الاعتماد على أصدق الأدلة الممكنة للوصول إلى نتائج يستسيغها العقل . ومرد ذلك إلى أنهم يستهدفون تسلية الذين يُتلى عليهم ما كتبوه ، أما هو فانه قنع بتحري الحقيقة تحرياً دقيقاً ليروي قصة صادقة قد لا تطرب السامعين ولكنها ترضي الباحثين عن صورة صحيحة لأحداث وقعت في الماضي وستتكرر في المستقبل ، وتكون هذه القصة تراثاً خالداً يفيد منه الناس جيلاً بعد جيل ، لا قصة طريفة تُسمع ثم تُنسى [3] . وكأنه قد تمثل بقوله تعالى : « أما الزبد فيذهب

(1) I, 1.
(2) I, 2 — 19.
(3) I, 20 — 22.

جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . »

وبعد أن يعرض توكيديدس على هذا النحو منهجه في البحث وغرضه من تحري الحقيقة ، يتناول أسباب الحرب ويفرق بين سببها الحقيقي وبين المنازعات التي أفضت اليها مباشرة [1] ، ثم يستطرد إلى وصف نمو قوة أثينا وما أفضى اليه ذلك من إشاعة الجزع بين خصومها [2] ، ويمضي في تتبع آثار ذلك في كتابه الأول وهو الذي ينتهي عند قطع العلاقات الدبلوماسية بين الفريقين [3] .

وتتناول كتبه الثاني والثالث والرابع وجزء من الخامس قصة الحرب في مرحلتها الأولى ، وهي التي دامت عشر سنوات وانتهت بصلح نيقياس (Nicias) في عام ٤٢١ ق. م. وطوال هذه المرحلة كانت خطة اسبرطة ، وهي أقوى دولة اغريقية برية ، مقصورة على غزو أتيكا وقت المحصول في كل عام والقيام باتلافه لارغام الأثينيين على الاشتباك في معركة برية فاصلة ، ومحاولة بذر بذور الشقاق بين رعايا الامبراطورية الأثينية . وأما خطة أثينا ، وهي أقوى دولة اغريقية بحرية ، فانها كانت تقضي بتجنب الاشتباك براً مع الأسبرطيين واخضاع أي عصيان بين رعاياها دون هوادة وبذل كل جهد للسيطرة على طرق التجارة الغربية وتخريب شواطئ البلوبونيز .

وفي بقية الكتاب الخامس يصف توكيديدس الفترة التي أعقبت صلح نيقياس وما سادها من قلق واضطراب وما قام به الفريقان في خلالها استعداداً لاستئناف القتال . وفي الكتاب السادس والسابع يروي مؤرخنا قصة الحملة الكبرى التي أنفذها الأثينيون إلى صقلية في عام ٤١٥ ق. م.

---

(1) I, 23 — 67.
(2) I, 89-117.
(3) I, 118 — 146.

اعتقاداً منهم أن اسبرطة لا تُقهر في بلاد الاغريق وأن النصر الحاسم لا يُحرز إلا بالسيطرة المطلقة على البحار . ومن أجل هذا كان يجب ادماج المدن الاغريقية في ايطاليا وصقلية في الامبراطورية الأثينية ، وبذلك تغلق في وجوه البلوبونيزيين كافة الاسواق ويحرمون المورد الباقي الذي كانوا يحصلون منه على القمح . وتوكيديدس يعطينا صورة حية لهذه الحملة المنكودة وما بُني عليها من آمال كبار وما صاحبها من ملابسات البطء وعدم الكفاية والخيانة والفتن مما أفضى إلى هزيمتها هزيمة منكرة في البر وفي البحر على السواء في عام ٤١٣ ق. م. وإلى بث الهلع والاضطراب في نفوس الأثينيين .

وفي الكتاب الثامن – وهو يؤلف الجزء الأخير من تاريخ الحرب البلوبونيزية – يشرح توكيديدس الآثار التي ترتبت على هزيمة أثينا في صقلية وأحداث الثورة التي نشبت في أثينا في عام ٤١١ ق. م. وجزءاً من حرب دكليا ، ولم يمهله القدر ليتم تاريخ الحرب منذ عام ٤١١ حتى نهايتها في عام ٤٠٤ ق. م. ، بل ليتم الجملة الأخيرة في الكتاب الثامن ، فلا عجب أنه قيل إن توكيديدس توفي والقلم في يده [١] . وهذا يفسر السبب في أن مستوى الكتاب الثامن دون مستوى الكتب السبعة الأولى ، لأن الأجل لم يمتد بمؤرخنا حتى يراجع الكتاب الثامن ويصقله .

ومنذ العصور القديمة ثار الجدل حول مؤلف الكتاب الثامن . وقد تولى مركلينوس الرد على ذلك بالفقرة التالية : « يزعم البعض أن الكتاب الثامن مزيف وليس من تأليف توكيديدس ، ويذهب البعض إلى أنه من تأليف ابنته على حين يقول البعض الآخر إنه من تأليف اجزنفون

(1) Shotwell, op. cit., P. 195

(Xenophon)[1] . ورداً على هذه المزاعم نقول إنه من الواضح أنه ليس من تأليف ابنته لأنه ليس في مقدور المرأة أن ترقى إلى مثل هذا المستوى الفني الرفيع . ولو أنها كانت موهوبة إلى هذا الحد لما كلفت باخفاء شخصيتها ولما اكتفت بتأليف الكتاب الثامن ولتركت مؤلفات أخرى كثيرة تكشف عن جنسها . وينهض الأسلوب دليلاً ناطقاً مدوياً على أن الكتاب الثامن ليس من تأليف اجزنفون فالبون شاسع بين الأسلوب الوسيط والأسلوب الرفيع . وهو ليس كذلك من عمل تيوبومبوس[2] (Theopompus) كما يزعم البعض ، لأنه فيما يبدو ولا سيما في رأي الراسخين في العلم أنه من تأليف توكيديدس نفسه لكنه لم يُراجع وينمق، إذ أنه عبارة عن مسودة وبه أجزاء كثيرة مجملة وكان يمكن تنميقه والاضافة اليه ، ولذلك يمكن القول بأن العرض ركيك لأنه فيما يبدو كتبه وهو مريض . وعادة عندما يعتور الجسم وهن تضعف كذلك القدرة على التفكير »[3] .

ويسود الرأي اليوم بأن الكتاب الثامن من تأليف توكيديدس لأن هذا الكتاب يتسم بكل الخصائص التي تتسم بها الكتب السبعة اللهم إلا إذا استثنينا عدم استخدام الخطب لتصوير الأحداث أو الآراء أو المشاعر

---

١ كان اجزنفون مؤرخاً أثينياً ، ولد في الثلث الأخير من القرن الخامس وعاش إلى حوالى ٣٥٤ ق. م. وكتب فيها كتب تاريخ الاغريق (Hellanica) منذ توقف توكيديدس أي من عام ٤١١ حتى موقعة مانتنيا في عام ٣٦٢ ق. م. وهذا التاريخ يقع في سبعة كتب لكنه يتألف من جزءين رئيسيين ، يتناول أولهما الشطر الأخير من الحرب البلوبونيزية وحاول فيه صاحبه تقليد توكيديدس مع فارق كبير في الأسلوب والقدرة على الوصف والتحليل . أما الجزء الثاني فانه ينهج نهجاً مختلفاً هو النهج المعروف عن صاحبه .

٢ ولد المؤرخ تيوبومبوس في جزيرة خيوس حوالى عام ٣٧٨ ق. م. ودرس في المدرسة التي أنشأها ايسقراط في تلك الجزيرة . ومن بين مؤلفاته تاريخ الاغريق (Hellenai historini) وهو استمرار لتاريخ توكيديدس منذ عام ٤١١ حتى موقعة كنيدوس في عام ٣٩٤ ق. م. لكنه لا يرقى إلى مستواه .

٣ Smith, op. cit., IV, PP. 185-6.

على نحو ما سنتبينه فيما بعد ، بيد أن القدَر لم يمهل توكيديدس ليراجع الكتاب الثامن ويدخل عليه من التعديلات والتحسينات ما يضعه في مستوى الكتب الأخرى[1] .

ويبدو أن تقسيم ما كتبه توكيديدس عن الحرب البلوبونيزية إلى ثمانية كتب على نحو ما نعرفه اليوم كان من عمل علماء الاسكندرية في العصر الهلينيسي . أما في الأصل فان الكتاب كان يتألف من خمسة أجزاء وهي : (ا) المقدمة وهي التي أصبحت تؤلف الكتاب الأول ، (ب) الجزء الذي يتناول السنوات العشر الأولى من الحرب وهو ما يتكون منه الكتب الثاني والثالث والرابع وكذلك الخامس حتى نهاية الفصل الخامس والعشرين ، (ج) الجزء الذي يعالج الفترة منذ عقد صلح نيقياس حتى حملة صقلية ، وهذا يؤلف باقي الكتاب الخامس ، (د) وصف حملة صقلية ، وهو ما يتكون منه الكتابان السادس والسابع ، (ه) وصف نتائج هزيمة أثينا في صقلية وأحداث ثورة ٤١١ في أثينا وجزء من حرب دكليا ، وهو ما يتكون منه الكتاب الثامن .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول الطريقة التي اتبعها توكيديدس في تأليف تاريخه[2] . ولعل أدنى هذه الآراء إلى الصحة هو أن توكيديدس أخذ منذ بداية الحرب بجمع معلومات وافية ويسجل ما يعن له من آراء ثم انتهز فرصة الهدوء النسبي الذي أعقب صلح نيقياس في عام ٤٢١ ليكتب المسودة الأولى لتاريخ الحرب في سنيها العشر الأولى . وعندما استؤنفت الحرب بحملة صقلية عاود توكيديدس طريقته في التأليف من حيث جمع المادة وتدوين الآراء في أثناء القتال ، واستمر على ذلك إلى

---

(1) Smith, op. cit., pp. 187-9.

(2) Romilly, Thucydide et l'impérialilisme Athénien, Paris, 1947, P. 11 ff.

أن وضعت الحرب أوزارها ثم راجع ما كتبه عن الفترة الأولى من الحرب ، فقد ضمنه الكثير من ثمرة تفكيره في المشكلة التي درسها ، وسنشير إلى ذلك فيما بعد كلما تعرض مناسبة . وحسبنا هنا للتدليل على هذه الاضافات في أثناء المراجعة ذكر بعض الأمثلة التي تنم عن الاضافة بعد هزيمة أثينا في النهاية . ويتضح ذلك بجلاء مثلاً في الفصل الخامس والستين من الكتاب الثاني حيث يشيد بنزاهة بريكلس وبُعد نظره وحكمة سياسته لتحقيق النصر في الحرب بالتزام خطة دفاعية مع العناية بشؤون الاسطول وتجنب السعي وراء بسط سيطرة أثينا في أثناء الحرب أو الاقدام على أي عمل يكون من شأنه تعريض كيان الدولة للمخاطر ، بيد أنه عندما قضى بريكلس نحبه ضرب الأثينيون بكل ذلك عرض الحائط تحت تأثير زعماء مجرحين سيطرت عليهم الأطماع الشخصية فقادوا وطنهم وحلفاءهم إلى التهلكة ١ . وأشارات توكيديدس التمهيدية في الكتاب الرابع ٢ إلى الحملة الأثينية الكبرى ضد صقلية مثل آخر لما اضافه مؤرخنا إلى مسودته عندما أخذ في مراجعتها بعد انتهاء الحرب .

ومن الواضح كذلك أنه في أثناء المراجعة أضاف الى خاتمة الفصل الخامس والعشرين من الكتاب الخامس تلك الفقرة التي تروي كيف أنه لم يكن مقدراً لصلح نيقياس أن يدوم لعدم رضاء الطرفين عن ذلك الصلح مما أفضى إلى نشوب الحرب ثانية بعد ست سنوات وعشرة شهور من تاريخ عقد الصلح ٣ . وبعد ذلك استأنف توكيديدس الكتابة من حيث توقف مبتدئاً بالفصل السادس والعشرين من الكتاب الخامس . والدليل على ذلك أنه استهل هذا الفصل بقوله :

---

١ راجع الكتاب الثاني ، الفصل ٦٥ ، وبوجه خاص الفقرات ٦ وما بعدها .

٢ IV, 59-64.

٣ V, 25, 3.

« توكيديدس الأثيني نفسه استمر في تأريخ الحرب حتى سقوط الامبراطورية الأثينية واستيلاء الأسبرطيين وحلفائهم على بيرايوس والأسوار الطويلة [١] ، مسجلاً الأحداث بحسب ترتيبها الزمني الذي أرخه بفصلي الصيف والشتاء في كل عام . » [٢] ويعتبر البعض هذه الجملة مقدمة ثانية تدل على أنه كان في نية توكيديدس اصدار تاريخ الحرب البلوبونيزية في جزئين ثم غير رأيه [٣] . بيد أنه لو كان هذا الرأي صحيحاً لحذف مؤرخنا هذه الجملة عندما استقر رأيه على اصدار هذا التاريخ في جزء واحد . ولعل الأدنى إلى الحقيقة هو أن توكيديدس لم يقصد بهذه المقدمة إلا توكيد فكرته بأنه وقد شهد بنفسه الحرب من أولها إلى آخرها ، واستأنف كتابة تاريخها بعد توقفه عن ذلك عندما استعرت نيران القتال ثانية ، يعتقد أن هذه الحرب ، برغم تعدد ميادينها وطول عهدها وما تخلل ذلك من فترة هدوء نسبي عقب صلح نيقياس ، لم تكن إلا حرباً متصلة بما في ذلك الفترة التي أعقبت الصلح ، فهي وان خمد القتال فيها لم تخمد المنازعات أو تزل الأحقاد أو يسترد كل فريق كافة الأماكن التي قضت شروط الصلح بردها إلى أربابها [٤] .

---

١ وفقاً لبلوتارخ « سيرة ليساندروس » ، الفصل الخامس عشر ، وقعت هذه الأحداث في ابريل عام ٤٠٤ ق. م. وكانت « الاسوار الطويلة » عبارة عن أسوار ضخمة شيدت حوالى منتصف القرن الخامس ق. م. بين أثينا وميناءيها فالرون وپيرايوس ضماناً للحفاظ على اتصال أثينا بالبحر حتى إذا غزا اتيكا جيش بري قوي . وفي خلال الحرب البلوبونيزية عندما كانت اسبرطة تغزو اتيكا وقت المحصول في كل عام كان الأهالي ينسحبون إلى داخل الأسوار الطويلة ويستظلون بحماها ويعيشون على المؤن التي كانت تأتيهم بحراً .

٢ V, 26,1.

٣ راجع :
Ullrich, F.W., Beitrage zur Erklarung des Thukydides

٤ وقد كان اولريخ أشهر من نادى بهذا الرأي وتبعه في ذلك بعض الباحثين .
V, 25, 3; 26, 2-3; 35.

وقد توافرت لدى توكيديدس فرص عظيمة للوقوف على [illegible] إذ أنه بفضل مكانته في بلاده واتصالاته برجالاتها وإقامته في [illegible] وجوده في أثينا في خلال السنوات الأولى من الحرب تمكن من [illegible] بمختلف السياسة الأثينية ومن الإحاطة بكل ما حدث هناك . [illegible] قد عرفنا منه أنه اشترك في إحدى حملات الحرب بوصفه قائداً [illegible] لا يبعد أن يكون قد اشترك قبل ذلك في حملات أخرى في مناصب أدنى من منصب القائد . وقد يسر له نفيه الوقوف على وجهة نظر [illegible] وقيمة عرضها جنباً إلى جنب مع وجهة نظر مواطنيه .

وقد ضمن توكيديدس تاريخه نصوص عدد من الوثائق الرسمية كمعاهدات الهدنة والصلح والتحالف [1] . ويبدو أنه قد أضاف هذه النصوص إلى مؤلفه بعد عودته إلى أثينا في أعقاب الحرب ، لأنه لم يكن ميسوراً له الحصول عليها قبل ذلك [2] . ويؤيد ذلك أن نص الحلف الخاص [3] من معاهدة التحالف التي عقدتها أثينا [illegible] في نهاية العشر السنوات الأولى من الحرب يتعارض مع رواية توكيديدس [4] ، مما يدل على أن مؤرخنا أضاف نص المعاهدة بعد كتابة هذا الجزء من تاريخه ولكن قبل مراجعة الجزء الوارد فيه هذا التعارض ، ذلك أن نص هذه المعاهدة وارد في الجزء (ب) وأما التعارض فإنه وارد في الجزء (ج) . ولكن [illegible] هذه الوثائق التي أثبت توكيديدس نصوصها بأكملها ، [illegible] ، والآخر [illegible] موته المبكر [illegible] قبل أن [illegible] الفرصة الكافية لجمع كل ما كان في حاجة إليه من الوثائق .

[illegible] توكيديدس [illegible] ذلك عدداً كبيراً من الخطب [illegible]

---

(1) [illegible]
(2) [illegible]
(3) [illegible] (4) [illegible]

مؤرخنا أنه سمع بنفسه بعضها واستقى معلوماته عن البعض الآخر ممن سمعوها [1] ، ثم يمضي فيقول إنه لم يصف شيئاً لم يره بنفسه أو يعرف خبره من مصادر مختلفة ويمحصه تمحيصاً دقيقاً [2] . وهو ينهي الينا أن ذلك كان عملاً شاقاً لأن الذين شاهدوا حادثاً بعينه كانوا يختلفون فيما بينهم في رواية ما شهدوه تبعاً لمقدار ما تذكروه أو مقدار ميلهم ناحية أو أخرى [3] ، لكنه قلما يفصح عن مصادر معلوماته التي يؤكد لنا أنه محصها تمحيصاً دقيقاً . ومن ثم فإما أن نوليه ثقتنا ونقبلها وإما أن نضن عليه بهذه الثقة ونرفضها . وبين أن الأجيال المتعاقبة لم تمنحه ثقتها عفواً ، فقد سلّط البحث العلمي الحديث بكل ما توافر له من الوسائل على ما كتبه توكيديدس وأثبته :

أولاً ، ان توكيديدس طبّق أساليب البحث العلمي على دراسة أحداث عصره الحسام ، وهي التي قسمت عالمه إلى معسكرين متعادين ، وبذل جهداً صادقاً ليتحرى صحة أحداث الحرب البلوبونيزية وتواريخها ، ويروي الحقيقة غير متأثر بالعواطف الجامحة والصوالح المتضاربة .

ثانياً ، انه إذا كنا نستزيد علماً عن فترة هذه الحرب بفضل ما عُثر عليه من نقوش ، وما وصل الينا من كوميديات اريستوفانس ، وما نطالعه في الكتّاب المتأخرين وبوجه خاص ما كتبه بلوتارخ عن سيرة حياة بريكلس ونيقياس والكبيادس (Alcibiades) وليساندروس ، وأنه إذا كانت رسالة ارسطو عن دستور أثينا بمقتطفاتها الوافية من النصوص الرسمية [4] تستكمل برواية توكيديدس عن ثورة عام ٤١١ ، فان « تاريخ » توكيديدس

(1) I, 22, 1
(2) I, 22, 2.
(3) I, 22, 3.
(4) Arist. Const. Athen., 28-34

لا يزال أوفى وأعظم مرجع عن تاريخ السنوات من ٤٣٣ حتى ٤١١ ق. م. وأنه لا يقل عن ذلك أهمية فيما يخص نصف القرن الذي سبق اندلاع لهيب الحرب البلوبونيزية ، وذلك برغم ما يتخلله عن هذه الحقبة من ثغرات كثيرة كنا في غنى عن سدها بالالتجاء إلى مصادر أخرى من بينهم هرودوتوس لو أن توكيديدس لم يقتصد في استخدام سجلات الدولة الأثينية الخاصة بهذه الحقبة [1] .

ثالثاً ، ان المصادر التي استمد منها توكيديدس معلوماته لكتابة موجز تاريخ الاغريق القديم هي أفضل ما توصل اليه بعد دراسة وتمحيص مؤلفات مؤرخي القرن الخامس الباكرين مثل هرودوتوس وانطيوخوس السراقوسي وهلانيقوس .

رابعاً ، ان أكثر ما كان أي مؤرخ قديم ينوء به عند تناول أحداث الماضي هو الافتقار إلى تاريخ دقيق للحوادث ، وانه في عهد توكيديدس لم تكن مشكلة الوصول إلى مقياس دقيق للزمن قد حلت بعد ، بل إن الاغريق لم يهتدوا إلى استخدام الحفلات الأوليمبية في التأريخ إلا بعد الحرب البلوبونيزية بثلاثة أرباع القرن ، أي في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ،وان هلانيقوس كان المؤرخ الوحيد الذي حاول التغلب على مشكلة قياس الزمن بوضع نظام للتأريخ الأثيني [2] . وإذا كان توكيديدس قد كشف عن عدم صلاحية هذا النظام [3] ، فانه لم يحاول تصحيحه أو تحسينه . وقد كان توكيديدس على وشك الاهتداء إلى ابتكار

(1) Macan, C.A.H., V, pp. 412-3.
(2) Shotwell, op. cit., p. 205; Macan, op. cit., pp. 402-3.
(3) I, 97, 2.

جليل ، وهو تأريخ الحوادث بسني حكام أثينا ، عندما أرخ بداية الحرب بالعام الذي كان فيه بيثودوروس (Pythodoros) ارخونا في أثينا [1] ، لكنه أضاع هذه الفرصة بعدم استمراره في ذلك واكتفائه بتحديد نقطة الابتداء على هذا النحو ونسبة السنوات التالية للحرب إلى سنتها الأولى ، والتجائه داخل هذا الاطار إلى أيسر السبل وأقربها إلى الفطرة في التأريخ وهي طريقة المزارع القديم في الاعتماد على تقويم الفصول [2] : الصيف للقتال والشتاء للسياسة ، وذلك بدلاً من استخدام شهور السنة الأتيكية وأيامها . ولعله قد آثر تلك الطريقة البدائية في تأريخ الحوادث سنوياً على نظام التقويم الأتيكي لبعد هذا النظام عن الكمال ، فضلاً عن أنه لم يكن شائعاً في كل بلاد الاغريق حيث كان يتوقع انتشار تلاوة كتابه . وبطبيعة الحال لم يكن ميسوراً تطبيق طريقة توكيديدس في التأريخ على الفترة الواقعة بين انسحاب الفرس من أوروبا وقيام الحرب البلوبونيزية ، ولذلك فان تاريخ هذه الفترة بالقياس إلى تاريخ الحرب البلوبونيزية يفتقر افتقاراً شديداً إلى التواريخ والدقة في تأريخ الأحداث . وبرغم ما تتصف به طريقة توكيديدس في التأريخ من نقص وقصور فانها صاحبة فضل كبير على المحدثين في اعادة تأريخ كل حوادث تاريخ الاغريق القديم ، وذلك لأن كل الاطار الذي صنعه المحدثون لتواريخ هذه الأحداث وتحقيق هذه التواريخ يعتمدان على ما سجله توكيديدس عن كسوف الشمس وخسوف القمر في سني الحرب البلوبونيزية [3] .

(1) II, 2, 1. (2) V, 20, 2-3.

(3) Macan, C.A.H., V, p. 203.

ومما تجدر ملاحظته أن الكتاب الخامس لا توجد فيه إلا خطبة واحدة قصيرة للقائد الأسبرطي برسيواس [1] وحوار طويل بين أهل جزيرة ملوس (Melos) والسفراء الأثينيين [2] ، على حين أنه توجد فيه نصوص خمس معاهدات [3] . وأما الكتاب الثامن فانه لا توجد فيه خطب على الاطلاق على حين أنه توجد فيه نصوص ثلاث معاهدات [4] . ويُعزى إلى المؤرخ الأثيني كرتييوس القول بأن توكيديدس قرر الاستغناء عن استخدام الخطب في الكتاب الثامن لادراكه أنها تفسد النص وتسبب الملل للقارئ [5] ، وهذا رأي غير مقبول . وعلى حين يرى بعض الباحثين المحدثين أن افتقار أي جزء من « تاريخ » توكيديدس إلى الخطب دلالة على عدم الاكتمال [6] ، لا يستبعد البعض الآخر أن توكيديدس كان يجرب طريقة جديدة في التأليف عندما صنف الكتابين الخامس والثامن فاستبدل بالخطب نصوص الوثائق [7] . ولعل الأرجح أن يكون توكيديدس قد اختار لمعالجة كل جزء من الحرب أنسب الطرق وأكثرها مواءمة لتصوير الأحداث ، وان كان هذا لا ينفي أن القدر لم يمهله حتى يراجع النصف الثاني من الكتاب الخامس (الجزء ج) ويتم الكتاب الثامن (الجزء هـ) ويقوم بمراجعته ، ويعطي هذين الجزءين شكلهما النهائي .

ولسنا في حاجة إلى الوقوف طويلاً عند أسلوب توكيديدس ، فالكل يجمعون على أنه سرد تاريخه بأسلوب رصين يجمع بين جمال الأدب الرفيع ودقة العلم المكين ، مع حرصه على أن يودع أكبر قدر من المعاني في أقل قدر من الكلمات ، إلى حد أنه في بعض الأحيان تؤدي كلمة واحدة عمل جملة ، وأحياناً تقوم جملة واحدة مقام فقرة بأكملها .

---

(1) V, 9. (2) V, 85-113. (3) V, 18-19; 23-24; 47; 77; 79.

(4) VIII, 18; 37; 58. (5) Dion. Hal., Thucyd., 16.

(6) Smith, op. cit., IV, pp. 187-8.

(7) Wade-Gery, H.T., Thucydides, in Oxford Class. Dict. 1957 pp. 903-4.

وقد حدا ذلك ببعض النقاد القدماء [1] إلى مؤاخذته على هذا الميل إلى الايجاز الشديد واهماله المحسنات اللفظية .

ويعزى إلى توكيديدس الفضل في خلق التاريخ السياسي [2] . حقاً ان الحروب الفارسية كانت أهم ما هدف هرودوتوس إلى معالجته في مؤلفه لكنه لم يكن في مقدوره أن يكون مؤرخاً سياسياً ، فهو لم يألف السياسة أو يخبرها بل إنه لم يشهد شيئاً من الحياة السياسية في مسقط رأسه هليكارناسوس ، تلك المدينة الاسيوية الهادئة ، فقد كان يحكمها طاغية يخضع للسيادة الفارسية ، ولم يكن من شأن ذلك اتاحة وجود ذلك اللون من الحياة السياسية الذي كان مألوفاً في مدينة اغريقية حرة [3] ، وعندما التقى بهذا اللون من الحياة في أثينا لم يشارك فيه . وأما توكيديدس فانه كان أحد مواطني أثينا بريكلس وهي التي كان النشاط السياسي فيها عصب الحياة ، فلا عجب أنه جعل طبيعة الدولة المشكلة الرئيسية في مؤلفه .

وقد سلف القول أن توكيديدس بدأ « تاريخه » بموجز لتاريخ الاغريق منذ عهد مينوس حتى الحروب الفارسية . وهذا الموجز يكشف عن قواعده في الحكم على الحقائق التاريخية وفي تقدير الأهمية التي يعلقها على أحداث عصره . فهو يعتقد أن تاريخ الاغريق الغابر غير هام لأن ظروف الحياة عندئذ – وقد حالت دون الاستقرار وفلاحة الأرض فلاحة منتظمة وتجميع رؤوس الأموال وقيام مدن كبيرة ووجود غير ذلك من مقومات الحضارة الحديثة – لم تكن لتسمح بانشاء أي تنظيم سياسي وطيد الأركان أو بنمو القوة على نطاق واسع . وإن هذا الموجز لبالغ في دلالته على وجهة نظر توكيديدس التاريخية ، فهو يطرح جانباً كل الروايات التاريخية

(1) Dion. Hal., Thucyd., 24 ff.; Marcell., 50.

(2) Jaeger, W., Paideia, Ideals of Greek Culture, Eng. trans. by Highest, 1938, p. 380.

(3) Voegelin, op. cit., pp. 333-4.

القديمة لأنها لم تنفع غلته ، ويستبدل بها افتراضاته وهي مجموعة جريئة من الآراء تستند إلى نظرته الثاقبة في العلاقة المنطقية بين التقدم الثقافي والتقدم الاقتصادي . ولما كان ينظر إلى الماضي بعيني السياسي الذي يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد فانه لا يفكر إلا في القوة ، ولا يرى في المعرفة الفنية والتطور الاقتصادي والثقافة العقلية إلا الأصول الضرورية لنمو القوة . وهو إذ يصور ذلك الماضي البعيد بخطوط عريضة اقتصادية وسياسية يفصح عن نظرته إلى أحداث عصره .

ولكنه إذا جاز القول بأن أحداث العصور الغابرة في تاريخ الاغريق بوجه عام لم تبلغ من الأهمية ما بلغته الحرب البلوبونيزية ، فانه لا يجوز قول ذلك عن الحروب الفارسية ، إلا إذا كان هدف توكيديدس هو الاقلال من أهمية كافة أحداث الماضي ليبرز أهمية موضوع « تاريخه » ، وهذا لا يتفق مع ما تتصف به آراؤه وأحكامه بوجه عام من الاتزان والانصاف وعدم التأثر بالعواطف والمصالح الشخصية . وعلى كل حال فان عدم احتفاله بأحداث الماضي البعيد لأنها لم تبلغ من الأهمية ما بلغته أحداث الحرب البلوبونيزية لا يتفق ووجهة نظر المحدثين من المؤرخين . ويجب أن نبرز هنا نقطة هامة وهي أن سر احتفال توكيديدس بأحداث هذه الحرب لم يكن بسبب أهميتها الذاتية وإنما بسبب ما تصوره هذه الأحداث وكذلك بسبب ما ترتب عليها من سقوط الامبراطورية الأثينية واذلال أثينا في الوقت الذي كانت فيه هذه المدينة تمثل أسمى ما وصلت اليه الحضارة الاغريقية حتى غدت علماً عليها ورمزاً لها .

وبعد هذا الموجز أعرب توكيديدس عن هدفه من تحري الحقيقة وهو أن يكون مؤلفه أثراً خالداً على الدهر يقف منه الباحثون على حقيقة الأحداث التي وقعت في الماضي وسوف تتكرر في المستقبل بالطريقة نفسها لأن طبيعة البشر ثابتة لا تتغير [1] . وقد ألح توكيديدس في تكرار

(1) I, 22, 4.

فكرته القائلة بأن التاريخ يعيد نفسه . وهذا يناقض الفكرة السائدة بين المحدثين من المؤرخين ، فكل حادث يتألف من عناصر مختلفة لا يمكن أن تجتمع كلها ثانية فيتكرر وقوع ذلك الحادث . بيد أنه إذا كان لا يصح القول بأن التاريخ يعيد نفسه ، فان هذا لا ينفي وقوع أحداث متشابهة في حياة الأمم والأفراد ، ومن ثم فان الناس يستطيعون الافادة من تجارب الماضي إذا وعوا دروسها . ولعل هذا هو ما رمى اليه توكيديدس ، تمشياً مع الفكر الاغريقي الذي كان يهدف إلى توفير هذا اللون من المعرفة عن طريق الوصول إلى نتائج عامة . وإذا كانت فكرة توكيديدس القائلة بأن تاريخ الأفراد والشعوب يعيد نفسه تخالف الفكرة الحديثة عن التاريخ ، فانه يشارك المحدثين الاهتمام بكل حادث بعينه ، فضلاً عن كون انه يتخطى نطاق الغريب من الأحداث والفريد منها ليصل إلى قانون عام ينطبق على الأحداث المتشابهة . وهذا عنصر أساسي في وجهة نظره السياسية ، على أساس أن الساسة لا يستطيعون التفكير مسبقاً والتصرف وفقاً لخطة مرسومة إلا إذا كانت في أحوال متشابهة تترتب عادة على عوامل متشابهة نتائج متشابهة . فان هذا الضرب من التتابع يجعل للتجارب فائدة ويسمح بقدر من بعد النظر وتقدير احتمالات المستقبل تقديراً صائباً ولو إلى حد ما .

وقد بدأ تفكير الاغريق السياسي منذ أوضح سولون هذه الحقيقة [1] . ومنذ عصر سولون غدت أثينا قوة كبرى واكتسبت حصيلة وافرة من التجارب السياسية نتيجة للعلاقات التي نشأت بينها وبين مختلف الدول . وكان تميستوكلس أول أثيني أفاد من هذه التجارب ، وهو الذي يعتبره توكيديدس طرازاً فذاً فريداً من الرجال يتصف ببعد النظر والحكم الصادق على الأمور [2] ، وهما الصفتان اللتان عُني توكيديدس بأن يبثهما

(1) Jaeger, op. cit., p. 387; Voegelin, pp. 194 ff.

(2) I, 108. 3.

« تاريخه » في الأجيال التالية بعرض صورة صادقة لأحداث الماضي يكتسب الناس منها المعرفة السياسية التي تولد فيها هاتين الصفتين . فهو يعتقد اعتقاداً جازماً أن الفائدة المحققة لدراسة التاريخ هي أنها تكسب من يقوم بها الخبرة السياسية ، وأن السياسة عالم يخضع لقوانينه الذاتية التي لا يمكن فهمها إلا ببحث الحقائق التاريخية لا على أنها جزئيات منفصلة وإنما بوصف كونها أجزاء متكاملة في عملية مستمرة . ولا جدال في أن نظرة توكيديدس الثاقبة إلى طبيعة الأحداث السياسية وقوانينها تضع توكيديدس فوق مستوى سائر المؤرخين القدماء . ولا غرو فان ذلك لم يكن ميسوراً إلا لأثيني يعيش في ذلك العصر الزاهر الذي أنجب رجالاً من طراز بريكلس وسقراط وفيدياس .

ولعل أخص سمات فلسفة توكيديدس السياسية هي ابراز منطق السياسة بعرض الأحداث عرضاً واضحاً . وقد ساعده على ذلك موضوع « تاريخه » ، فالحرب البلوبونيزية تظهر بجلاء منقطع النظير العلاقة بين السبب الحقيقي والنتيجة الحقيقية في السياسة . ومن الجلي أنه يتعذر تطبيق فكرته على أي سلسلة من الأحداث يختارها الانسان كيفما اتفق ، مثل ما يتعذر أن نتوقع ظهور فلسفة أفلاطون أو فن فيدياس في أي فترة من فترات تاريخ الاغريق .

والخطب الكثيرة التي ضمنها توكيديدس مؤلفه لم يتبع في روايتها الطريقة الدقيقة نفسها التي اتبعها في رواية أحداث الحرب . وهو نفسه ينبه القارئ إلى أنه لم يثبت هذه الخطب حرفياً كما ألقيت ، لأنه كان يتعذر عليه وكذلك على الذين نقلوا اليه أخبار ما لم يسمعه شخصياً منها تذكر الكلمات نفسها ، ثم يمضي فيقول : « ولذلك فانني عزوت إلى كل متحدث الأفكار الملائمة للمناسبة التي تحدث فيها والعبارات التي رجحت أن يكون قد استخدمها للتعبير عن تلك الأفكار ، وفي الوقت

نفسه حاولت قدر استطاعتي اثبات فحوى ما قيل فعلاً » [1] . ومع ذلك نلاحظ أنه برغم ما بذله توكيديدس من الجهد لتحري الحقيقة عما جرى في كل مناقشة وصفها ، فانه من المؤكد أن بعض ما يحتويه مؤلفه من خطب ، إن لم يكن معظم تلك الخطب ، كان يختلف اختلافاً جوهرياً عن النص الذي أثبته . وإذا كان لا يجوزمرة أن يؤلف مؤرخ لشخصيات تاريخية خطباً أتاه نبؤها مهما تطابق عباراته فحوى ما تحدثوا عنه ، فانه لا يجوز ألف مرة أن ينسب إلى تلك الشخصيات شيئاً يخالف ما قالوه فعلاً أو لم يقولوه اطلاقاً . وكيف نفسر إقدام مؤرخ أمين صادق دقيق مثل توكيديدس على ذلك ؟ وهل معنى ذلك أن توكيديدس قد زيف التاريخ ؟

يجمع الباحثون على أن توكيديدس لم يستهدف من وراء خطبه أن يزيف التاريخ أو أن يتجنى على أحد ، وإنما أن يعرض على هذا النحو – بدلاً من أن يعرض على هيئة تعليقات – فلسفته السياسية ، وهي التي كان غرضها الأول والأخير تصوير الحقيقة تصويراً صادقاً بالكشف عن أفكار الشخصيات البارزة وبيان أثر هذه الشخصيات في توجيه الرأي العام ، فينبلج الظلام عن جبين العوامل الحقيقية الكامنة وراء الأحداث . وكلنا نسلم بأنه لمعرفة الحقيقة عن كثير من الأحداث السياسية لا يمكن الاكتفاء بما حدث أو قيل فعلاً في تلك المناسبات ، فغالباً ما يكون ذلك ستاراً يخفي الحقيقة ، بل تتعين معرفة نوايا وأفكار الذين قاموا بالأدوار الرئيسية في تلك الأحداث . وأزاء رغبة توكيديدس الصادقة في تصوير الحقيقة وايمانه بأن كل اتجاه في مثل هذا الصراع كان وليد تفكير سابق ، وبأنه في وسع من يرقب الصراع عن كثب الوصول إلى كنه هذا التفكير وإزاء قدرته على الكشف عن دوافع كل فئة لعبت دوراً في الحرب ،

(1) I, 22, 2.

فانه أجرى على ألسنة الزعماء شرح أدق دوافعهم ومعتقداتهم في خطب عامة بحسب رأيه فيما كان يتعين على كل فريق أن يتكلم تمشياً مع منطق الموقف الذي اتخذه . ومعنى ذلك أن توكيديدس لم يقم فيما يخص الخطب بدور الكاتب الذي يسجل ما يسمعه بنفسه أو ينقله اليه غيره ، وإنما بدور المفسر العاقل الأمين الذي يرفض أن يخدعه المظهر فيشق ستار الحجب بحثاً عن الجوهر ليبسط الدوافع الحقيقية التي تمخضت عنها أحداث الحرب التي يؤرخ لها . فلاعجب وهذه هي المهمة التي اضطلع بها توكيديدس أن يكون قد صور لنا تصويراً ناطقاً الحالة العقلية وكذلك الحالة النفسية اللتين سادتا في فترات معينة في أثناء الحرب ووقعت تحت تأثيرهما أحداث تلك الفترات . ويسلم النقاد كافة بأن توكيديدس كان أقدر جميع الذين شهدوا تلك الأحداث على تفسيرها تفسيراً صادقاً للأجيال المتعاقبة . ومما تجدر ملاحظته أن توكيديدس لم يكن أول من اتخذ من الخطب وسيلة لتصوير الأحداث الهامة والشخصيات التي لعبت أدواراً رئيسية فيها ، فقد سبقه إلى ذلك هوميروس ومؤلفو المسرحيات في أتيكا وكذلك هرودوتوس . وبداهة أن هذا لا يبرر ما فعله توكيديدس .

ومع تقديرنا لأمانة توكيديدس وعبقريته وبصيرته النافذة وآرائه السياسية الناضجة وما في الخطب التي اصطنعها من طرافة ومتعة وحيوية ، فاننا نأخذ عليه أنه آثر ألا يعرض فلسفته السياسية على هيئة تعليقات وإنما في تلك الخطب التي اصطنعها وتصعب التفرقة فيها بين ما تصوره المؤرخ وما حدث فعلاً ، وهو ما يجب أن يكون في ميسور الناس الوقوف عليه ليفسروه بكل ما يتوافر لهم من وسائل وعلى ضوء ما تتكشف عنه روح العصر من اتجاهات وما يكشف البحث عنه من وثائق ، ففلسفة التاريخ تختلف من عصر إلى آخر وان بقيت الحقائق ثابتة لا تتغير وحسبنا أن نشير إلى أن طريقة توكيديدس كانت نكبة على التاريخ عدة

قرون من بعده حينما اقتفى أثره في هذه الناحية مؤرخون لم يسموا إلى مستواه في التفكير ولا في الأمانة [1] .

وقدرة توكيديدس على التفرقة بين بواطن الأمور وظواهرها تبدو كذلك عندما نراه يفرق بين الأسباب الحقيقية التي أدت إلى الحرب البلوبونيزية وبين المنازعات التي سبقت هذه الحرب مباشرة . ويبين أنه قد استعار ذلك من علم الطب ، وهو الذي كان أول العلوم التي فرقت تفرقة علمية بين العرض والجوهر ، وذلك بالتفرقة بين ظواهر العلة وأسبابها الحقيقية [2] . واقدام توكيديدس على اتخاذ هذه الخطوة ينهض دليلاً على اعتباره السياسة مجالاً تكيّفه أسبابه الطبيعية التي تفضي إلى نتائج طبيعية ، وعلى ارتفاعه بالمشكلة التي يعالجها إلى مستوى الدراسة الموضوعية التي لا تتأثر بالعواطف والصوالح الشخصية ، أو تلقي بالاً إلى تدخل العناية الإلهية في توجيه مجرى الأحداث المختلفة . ولا جدال في أن وقوف توكيديدس على السبب الحقيقي للحرب كان ثمرة تفكير عميق متصل في المشكلة التي عالجها ، ولا في أن هذه الثمرة تعرض علينا أحد أمثلة فلسفته السياسية الناضجة . فهو لم يلق على الحرب تلك النظرة السطحية التي ألقاها عليها اريستوفانس [3] وديودوروس [4] وبلوتارخ [5] ، وهم الذين عزوا نشوبها إلى القرار الذي أصدره بريكلس بحرمان ميجارا من المتاجرة مع الامبراطورية الأثينية ، بل درس الحرب دراسة عميقة هدته إلى معرفة سببها الحقيقي . ففي رأي توكيديدس أن هذا القرار والخطوتين الأخريين اللتين اتخذتهما أثينا قبيل الحرب (١ – قبول أثينا

(1) Murray, op. cit., p. 186; Shotwell, ip. cit., pp. 210-12; Jaeger, op. cit., p. 388.

(2) Jaeger, op. cit., p. 390; Voegelin, pp. 353 ff.

(3) Arist., Acharn., 513-536; Peace, 608 ff.

(4) Diod., XII, 38-41

(5) Plut., Pericles, 30 H.

محالفة كوركيرا (كورفو) وكانت مستعمرة غنية من مستعمرات كورنثة وتسيطر على الطريق إلى الغرب ، ٢ – قيام أثينا بمحاصرة بوتيدايا وكانت مستعمرة أخرى لكورنثة) كانت أسباب التذمر والشكوى من سلوك أثينا . وأما السبب الحقيقي للحرب فانه رأى بثاقب نظره أنه كان اطراد نمو قوة أثينا إلى حد أفزع اسبرطة وتهدد كيانها [1] . وهذا هو الرأي السائد اليوم [2] ، وان كان البعض يرى أن هذا يفسر استئناف الحرب في عام ٤١٣ وانتهاءها على نحو ما انتهت اليه أكثر مما يفسر قيامها في عام ٤٣١ ، وانه إذا كانت دراسة الأدلة القديمة لا تتكشف عن سبب واحد يفسر قيام الحرب تفسيراً شافياً فان كراهية كورنثة الدفينة لأثينا ، وسياسة اسبرطة المتعثرة ، وتصميم بريكلس على عدم التضحية بأي شيء في سبيل الاحتفاظ بالسلام وعلى مواجهة الأزمة حين يمكن التحكم فيها – إن كل ذلك جعل نشوب الحرب أمراً لا مفر منه . أما المنافسة التجارية بين الفريقين ، وانتماء أحدهما إلى العنصر الأيوني والآخر إلى العنصر الدوري ، وانتصار أثينا للنظم الديمقراطية على حين كانت اسبرطة وحليفاتها تناصر الأوليجاركية ، وفرض أثينا السيطرة على رعاياها على حين كانت اسبرطة تترنم بحق « تقرير المصير » و « توازن القوى » – أما كل ذلك فانه جعل قيام الحرب محتملاً وإن لم يجعله محتوماً [3] . ويؤيد المعارضون لتوكيديدس رأيهم بأن الامبراطورية الأثينية كانت عند منتصف القرن الخامس أقوى مما كانت عليه في السنوات السابقة مباشرة للحرب [4] .

ولا جدال في أنه في خلال السنوات السابقة مباشرة للحرب لم تبسط

---

(1) Thucy., 1, 23, 5 — 67,5.

(2) Rostovtzeff, Greece, Galaxy ed, 1962, pp. 151 ff.; Jaeger, op. cit., pp. 389-90; Romily, op. cit., pp. 22ff.

(3) Adcock, C.A.H., V, p. 190.

(4) Macan, op. cit., p. 414.

أثينا سلطانها على أقاليم جديدة ، بل انها صادفت بعض النكسات منذ عام ٤٥٠ ، ولكنه لا جدال كذلك في أن أثينا دعمت سيطرتها على امبراطوريتها التي نظمتها تنظيماً قوياً ، ونشرت نفوذها حتى القرم ، وأسست بعض المستعمرات الحديدة مثل أمفيبوليس ، وعقدت عدداً من المحالفات كان من أبعدها أثراً تحالفها مع مدن في الغرب مثل ليونتينوم ورجيوم ، فأفزع اسبرطة وأثار كوامن حقدها اطراد نمو قوة أثينا وازدياد ما تفيده من جراء ذلك يوماً بعد يوم ، فضلاً عما كان ينطوي عليه كل ذلك من أخطار تتهدد اسبرطة وحلفاءها . والواقع أن التحليل الدقيق الذي يتضمنه الكتاب الأول من « تاريخ » توكيديدس لا يدع مجالاً للشك في أن الامبراطورية الأثينية كانت الأداة التي تنوي أثينا استخدامها والاحتفاظ بها وكذلك العلة التي استخدمها الفريق الآخر للفوز بمناصرة العالم الاغريقي لهم في القضاء عليها ، فآخر بعثة أنفذها الاسبرطيون إلى الأثينيين اكتفت بابلاغهم الطلب التالي : « إن الأسبرطيين يرغبون في السلام ، وسوف يكون هناك سلام إذا منحتم الاغريق حريتهم . » [١]

ونرى في الكتاب الثاني كذلك أن قيام الامبراطورية الأثينية هو الذي أوحى إلى كل من الفريقين بالموقف الذي اتخذه ، فقد استمد أعداء أثينا من ذلك مبرراً لاعتبار نضالهم حرباً لتحرير الأغريق ، ذلك أن توكيديدس يحدثنا في صدر الكتاب الثاني بأن : « عواطف الناس كانت مع الأسبرطيين لأنهم نصبوا أنفسهم محرري بلاد الاغريق ، فكانت المدن والأفراد في لهفة على بذل قصارى الجهد لمساعدتهم بالقول والعمل . وإذا عجز شخص عن المشاركة بدا له أن الدنيا قد توقفت . فقد كان استياء الناس من الأثينيين شديداً ، وكان بعض الناس يتطلع إلى الخلاص

(1) I, 139, 3.

منهم ، والبعض الآخر يخشى الوقوع تحت سيطرتهم . »[1] هذا إلى أن ارخيداموس ، ملك اسبرطة ، اتخذ من سيطرة الأثينيين مبرراً لمهاجمة بلاتيا وهي التي أنهى اليها أن الحرب إنما قامت لتحريرها وباقي رعايا أثينا من ربقة الامبراطورية الأثينية [2] .

واستمع إلى بريكلس في الكتاب الثاني أيضاً وهو يخاطب مواطنيه بعد أن غزا البلوبونيزيون أراضيهم للمرة الثانية منذ بداية الحرب وأنهك الطاعون قواهم وخيم اليأس على نفوسهم حتى سعوا عبثاً إلى عقد الصلح مع أعدائهم ، فوقف بريكلس يستنهض هممهم ويقول لهم : « أنتم تظنون أن امبراطوريتكم مقصورة على حلفائكم ، ولكنني أقول لكم إنه من بين شطري الدنيا المفتوحين أمام بني الإنسان ، الأرض والبحر ، أنتم السادة المطلقون في البحر ، وليس ذلك إلى المدى الذي تبسطون سيطرتكم عليه الآن فحسب ، بل إلى أي مدى تشاءون بسط سيطرتكم عليه . »[3] ثم يمضي بعد ذلك فيقول : « وفضلاً عن ذلك فانكم ملزمون بالحفاظ على مجد مدينتكم وهو الذي تزهون به ، لأنه لا يمكنكم أن تطلبوا المجد دون تحمل تكاليفه . ولا تتصوروا أنكم تحاربون فقط من أجل الاحتفاظ بحريتكم ، بل أيضاً للذود عن حياض امبراطوريتكم ودرء ما يتهددكم من المخاطر الناجمة عن الكراهية التي أثارها في الناس قيام هذه الامبراطورية . »[4] ويستطرد بعد ذلك فيقول: « وإذا اضطرنا آخر الأمر إلى الحد ولو بمقدار من عظمتنا ، فكل شيء له مده وجزره ، وسيذكر الناس دواماً أننا دون سائر الاغريق قد كان لنا أكبر عدد من الرعايا الاغريق .... ولقد كانت الكراهية دوامـاً نصيب أولئك الذين يطمحون إلى حكم غيرهم ... بيد أن هذه الكراهية لا تدوم طويلاً ، على حين أن جلال المجد يبقى خالداً إلى الأبد . »[5]

---

(1) II, 8, 4. (2) II, 72, 1.
(3) II, 62, 2 (4) II, 63, 1 (5) II, 64, 3-6.

وإذ أدرك توكيديدس أن قوة أثينا كانت السبب الحقيقي للحرب ، فأنه عند الحديث عن مقدمات الحرب عُني بوصف نمو قوة أثينا واتخذ من ذلك تمهيداً لوصف المؤتمر الذي عقده الحلفاء في اسبرطة لحثها على اعلان الحرب ووصف اجتماع الجمعية العامة التي عقدها الاسبرطيون وأعلنوا فيها أن أثينا خرقت معاهدة صلح الثلاثين عاماً ، وهي التي عقدت بين الطرفين في عام ٤٤٦ – ٤٤٥ ق. م. وفي هذه المناسبة الحاسمة ، مع أن الحرب لم تُعلن على أثينا إلا في المؤتمر الذي عقده الحلفاء عقب ذلك ، أورد توكيديدس أربع خطب – وهو عدد يزيد كثيراً على ما أورده في أية مناسبة أخرى . وقد رمى توكيديدس من وراء هذه الخطب إلى عرض وجهة نظر حلفاء اسبرطة على لسان الكورنثيين [1] ، ألد أعداء أثينا ، ووجهتي النظر السائدتين في اسبرطة ، أي وجهة نظر المحافظين [2] وهم الذين كانوا يفضلون المسالمة إلى أن يُستكمل الاستعداد لمواجهة عدد خطير مثل أثينا وهي التي كانت تتوافر لديها كل الوسائل بخصوص غمار حرب ناجحة ، ووجهة نظر الحزب الذي كان يلح في المبادرة إلى محاربة الأثينيين بعد أن تمادوا في بناء قوتهم [3] ، وكذلك وجهة نظر الأثينيين [4] على لسان بعثة يقول توكيديدس إنها كانت تزور اسبرطة عندئذ في مهمة لم يوضحها . وتلتقي الخطب الأربع في تصوير مبلغ قوة أثينا ليخرج القارئ أو السامع من ذلك كله بأن السبب الحقيقي للحرب هو فزع الاسبرطيين وحلفائهم من اطراد نمو هذه القوة . ولا ريب في أن هذه الخطب الرائعة من تأليف توكيديدس بعد انتهاء الحرب ودراستها دراسة عميقة والوقوف على العوامل التي أفضت اليها والملابسات التي اكتنفتها والمشاعر التي ألهبتها ، وصاغ من كل ذلك خطباً أجراها على ألسنة شخصيات مختلفة ليستطيع الناس أن

(1) I, 68 — 71.

(2) I, 80 — 85

(3) I,86.

(4) I, 73 — 78

يتصوروا هذه الحرب على حقيقتها .

وأبرز هذه الخطب الأربع خطبتا السفيرين الكورنثي والأثيني . وقد أجرى توكيديدس على لسان السفير الكورنثي أقوالاً تستهدف تحريض الأسبرطيين على اعلان الحرب بالمقارنة بين صفاتهم ، وهم الذين عُرفوا بالتقاعد والتمسك بالتقاليد ، وصفات الأثينيين ، وهم الذين تميزوا بالجرأة والمخاطرة والابتكار وعدم خوار العزيمة مهما تكن الظروف التي تواجههم ، فوصف الخُلق الأثيني على نحو أروع مما وصفه أي خطيب أثيني في حفل عام ، بل أروع مما وصفه توكيديدس نفسه في خطبة التأبين المشهورة التي عزاها إلى بريكلس واستعار منها بعض النقاط ليضمنها خطبة السفير الكورنثي . ويمكن تفسير ذلك بأن توكيديدس هدف من وراء هذه الخطبة إلى تحقيق غرضين : أحدهما هو تصوير الحالة العقلية التي سبقت قيام الحرب ، والآخر هو تحليل الأساس النفسي الذي بُنيت عليه قوة أثينا في خلال نصف القرن الذي سبق قيام الحرب . وخطبة السفير الأثيني متممة لخطبة السفير الكورنثي ، فهي تبرر نمو قوة أثينا بعرض تحليل تاريخي لنمو تلك القوة يبين العوامل التي حدت بأثينا إلى بناء قوتها حتى بلغت ذلك الحد . وفي رأي توكيديدس أن قوة أثينا أخذت في النمو منذ قيامها بدورها الخالد في دحر الفرس عند مارثون (٤٩٠ ق. م.) وسلاميس (٤٨٠ ق. م.) ، لأنه عندما أعرب حلفاؤها عن تقديرهم لما بذلته وقامت به في سبيل الذود عن حرية الاغريق وكيانهم السياسي بأن أسندوا اليها مقاليد الزعامة ، دفعها الخوف من نقمة اسبرطة ، وقد أقصيت عن زعامتها التقليدية ، إلى دعم القوة التي اكتسبتها ، ثم إلى اتخاذ الحيطة ضد خروج حلفائها عليها بتضييق دائرة الاشراف على عصبتهم بالتدريج ، مما أفضى آخر الأمر إلى اخضاع حلفائها بعد أن كانوا في الأصل مستقلين . على أنه لم يكن مبعث ذلك الخوف وحده بل الجشع والمصلحة الذاتية . ويجعل

توكيديدس السفير الأثيني يقرأ صفحة المستقبل باسناد هذه العبارات اليه : « وإذا أفلحت اسبرطة في هزيمة أثينا وآلَ اليها سلطانها ، فان عطف الاغريق الذي كسبته اسبرطة (قبل الحرب بوصفها نصيرة العدل والحرية ضد الجشع والاستعمار) سيتحول عنها . »[1] ومعنى هذا أن توكيديدس قد خرج من دراسته برأي فحواه أن دوري الطاغية والمحرر كانا لا يقابلان صفات خلقية دائمة في كل من أثينا واسبرطة وإنما كانا رداءين تبادلتهما هاتان الدولتان عندما تبدل ميزان القوى . ولما كان هذا الرأي وليد التجربة التي خبرتها بلاد الاغريق حين كانت أثينا صاحبة السلطان ثم حين آل ذلك السلطان إلى اسبرطة عقب هزيمة أثينا النهائية في عام ٤٠٤ ، فانه يؤيد الفكرة القائلة بأن توكيديدس الف هذه الخطبة وكذلك الأخرى المتصلة بها بعد الحرب .

ومما يجدر بالملاحظة أنه كما أوضح توكيديدس أن اطراد نمو قوة أثينا كان أمراً ضرورياً لا بدّ منه ، أوضح كذلك أن خوف اسبرطة من ذلك هو الذي اضطرها إلى اعلان الحرب أولاً ، كما اضطرها إلى استئناف هذه الحرب بعد صلح نيقياس ، ولذلك فهو يعتبر الحرب التي سبقت ذلك الصلح والفترة القلقة المضطربة التي أعقبته ، وكذلك الحرب التي نشبت بعد هذه الفترة أجزاء من حرب واحدة ، أفضت اليها العوامل نفسها ، وجعلت قيام هذه الحرب أمراً لا مفر منه . وهذه الفكرة تعبّر عن بصيرته السياسية النافذة في أرقى صورها .

وعندما ننتقل من أسباب الحرب إلى وصف الحرب ذاتها ، نلحظ تغلغل هذه البصيرة النافذة إلى أغوار الحقائق لتلقي عليها ضوءاً ساطعاً . وهنا أيضاً اتخذ التفسير شكل خطب تصور الماضي تصويراً نابضاً

---

(1) I, 77, 6

بالحياة . ومن أخص سمات توكيديدس دأبه على أن يورد في كل مناسبة وجهتي نظر متعارضتين في الموضوع نفسه ، على نحو ما عرض على لسان الملك ارخيداموس ممثل المحافظين [1] ولسان الأفور ستنلايداس (Sthenelaidas) ممثل حزب الحرب [2] الاتجاهين المتعارضين في السياسة الاسبرطية قبل نشوب الحرب . ذلك أن توكيديدس انتهز فرصة وصف ثورة موتيليني في عام ٤٢٨ ليعرض على لسان كليون [3] ولسان ديودوتوس [4] وجهتي نظر الحزبين الأثينيين المتطرف والمعتدل في السياسة التي تتبع نحو حلفاء أثينا ، أو بعبارة أصح رعاياها ، فكلاهما وإن كانا يعتبران الثورة أمراً خطيراً يتهدد موارد أثينا ويجب تفادي تكرار وقوعه إلا أنهما كانا يختلفان في وسيلة تحقيق هذا الهدف ، فالأول يدعو إلى الشدة ليجعل من الثوار عظة وعبرة لغيرهم ، وأما الثاني فانه يدعو إلى استعمال الرأفة هذه المرة حتى لا يترك تصرف الأثينيين مرارة في نفوس حلفائهم وإلى اتخاذ الحيطة مستقبلاً لكيلا تنشب الثورة مرة أخرى . وفي الخطب التي ألقاها بعد سقوط بلاتيا في عام ٤٢٧ أهل هذه المدينة [5] وأعداؤهم أهل طيبة [6] أوضح توكيديدس استحالة تحقيق العدالة في زمن الحرب . وفي الخطب التي القيت عقب فشل اسبرطة عند بولوس (Pylos) في عام ٤٢٥ عرض رغبتين متعارضتين ازاء الصلح : رغبة اسبرطة [7] (وهي التي بدأت الحرب أصلاً) في التفاهم وعقد الصلح بدلاً من السير في حرب قد تتمخض عنها يوماً كوارث لا يتوقعها الظافرون ، وعزوف أثينا عن عقد الصلح [8] ، وهي التي كانت قبل الحرب تدعو إلى التفاهم بل رأينا كيف أنها في

(1) I, 80 — 83 (2) I, 86
(3) III, 37 — 40 (4) III, 43 — 46
(5) III, 53 — 59 (6) III, 61 — 67. (7) IV, 17 — 20
(8) IV, 21 — 22

العام الثاني للحرب سعت دون جدوى إلى عقد الصلح ، ولكنها الآن وقد كانت الأمور تسير مواتية لها أصبحت لاترغب في الصلح إلا بعد الفوز بنصر حاسم . وقد انتهز توكيديدس فرصة مناقشة عقد الصلح أو متابعة السير في الحرب ليحمل على مواطنه كليون حملة قاسية يتفق الباحثون المحدثون على أنها لا تخلو من الاسراف الذي خرج بمؤرخنا مرة أخرى عما اتصف به من الانصاف والحيدة بوجه عام . وقد عرض كذلك على لسان الكيبيادس [1] صاحب مشروع ارسال حملة كبرى إلى صقلية وعلى لسان نيقياس [2] أشد المناهضين لهذا المشروع الاتجاهين المتباينين عند الأثينيين ازاء هذه المسألة التي سنعود اليها مرة أخرى . وفي الحوار الذي دار في جزيرة ملوس (Melos) بين أهل هذه الجزيرة وبين السفراء الأثينيين [3] ، وكذلك في الخطابين اللذين ألقاهما في كمرينا (Camarina) هرموقراطس المبعوث السرقوسي [4] ويوفموس (Euphemos) المبعوث الأثيني [5] ، أبرز توكيديدس مشكلة حياد الدول الضعيفة في أثناء الحرب بين دول كبيرة ، فعرض هذه المشكلة من وجهتي نظر مختلفتين هما وجهة نظر العدالة المطلقة ووجهة نظر سياسة الأمر الواقع .

ودأب توكيديدس على عرض وجهتي نظر مختلفتين في شكل خطب يذكرنا بما فعله هرودوتوس مرتين في « تاريخه » : واحدهما (III, 80-82) عندما أورد ثلاث خطب تتضمن ثلاثة آراء مختلفة في نوع نظام الحكم الفارسي مستقبلاً ، وذلك في الاجتماع الذي عقده قادة الفرس السبعة بعد القضاء على الثورة التي نشبت في أعقاب وفاة قمبيز . والمرة الأخرى (VII, 8 — 10) عندما أورد أربع خطب ، اثنتين منها لأجزركيس في

(1) VI, 16 — 18.
(2) VI, 9 — 14
(3) V, 85 — 113.
(4) VI, 76 — 80.
(5) VI, 82 — 87

تجبيذ حملته لغزو بلاد الاغريق ، وواحدة لماردونيوس في تأييد القيام بهذه الحملة ، وواحدة لأرتبانوس في مناهضة هذا الشروع . وازاء ذلك يبدو أنه إذا كان توكيديدس قد استمد الفكرة من هرودوتوس ، فانه ذهب إلى أقصى المدى في تطبيقها مستخدماً بصيرته السياسية النافذة وقدرته الفائقة على تحليل الحقائق وبسطها .

ويدلل توكيديدس في مواضع متفرقة على الفارق بين النظريات المثالية والحقائق الواقعية في السياسة . ويناقش في الخطب التي ألقاها القواد المختلفون في جيوشهم المشاكل النفسية للحرب من حيث تأثيرها في الخطط الاستراتيجية . ويتناول في الخطب التي ألقاها الزعماء البارزون تأثير تلك المشاكل في الحياة السياسية . وهو أيضاً يصف الأثر السياسي البعيد المدى للطاعون الذي تفشى في أثينا وأضعف معنوياتها وألحق بها خسائر مادية فادحة [1] . ويصور توكيديدس تصويراً دافقاً بالحيوية فظائع الثورة التي اندلع لهيبها في كوركيدا [2] في عام ٤٢٧ ، ليتخذ منها أساساً للحديث عن الروح الثورية التي سرعان ما أخذت تنفث سمومها في الدول الاغريقية ، حيث كان الأمل في التدخل الأجنبي أو الخوف منه يشجع بل يزيد الصراع الحزبي لهيباً ومرارة ، ذلك أن دعاة الأوليجاركية كانوا يتطلعون إلى الاسبرطين على حين كان الديمقراطيون يرنون بأبصارهم إلى الأثينيين . ولم يفت توكيديدس أن يلاحظ أن الصراع الحزبي كان من طابع الحياة السياسية في الدول الاغريقية إلا أنه في وقت السلم كان أقل ضراوة ومرارة مما وصل اليه في أثناء الحرب وتتأيد هذه الملاحظة بمثل مشهور من التاريخ الحديث ، وهو الثورة الفرنسية عندما أفضى التدخل الأجنبي إلى أسوأ الفظائع التي ارتكبها الثوار . وفي هذه الثورة أيضاً نرى مصداقاً لوجهة نظر توكيديدس وهي

(1) II, 47 — 59; III, 87. (2) III, 81 — 85, 1.

التي تعزو الانهيار الخلقي والتغير الهائل الذي طرأ على كافة القيم المعنوية إلى احتدام الروح الثورية وبلوغها أقصى درجات العنف . فالثوار في كوركيرا وطدوا أنفسهم على أن يبزوا كل من سبقوهم بالتفنن في ضروب نشاطهم وفي صنوف الأعمال الانتقامية . فلم تعد للكلمات المعاني السابقة ذاتها بل اتخذت من المعاني كل ما راق للثوار ، ذلك أن جسارة الاستهتار أصبحت شجاعة الولاء ، ورزانة التأني غدت سمة للجبن ، والاعتدال أضحى دلالة على خَوَر العزيمة ، ولما كان النشاط الدافق قد أصبح الصفة التي يجب أن يتحلى بها كل مواطن ، وكان الشخص الذي يميل إلى العنف موضع الثقة على الدوام وخصمه مثاراً للريبة ، فان الركون إلى الهدوء والتزام الحيدة كان مصدر خطر شديد. ذلك أن المواطنين الذين لم يؤيدوا أحد الحزبين المتصارعين راحوا ضحية لكليهما ، فقد كانوا إما موضوعاً للبغض لعزوفهم عن الصراع وإما موضوعاً للحقد لأنه لم ينلهم سوء . وهكذا ضُرب عرض الحائط بكل القيم والشرائع وسط ما أثاره الصراع الحزبي العنيف من أحط النزعات البشرية .

ومما يجدر بالملاحظة أن توكيديدس اذ يعالج كل المشاكل الكبرى التي تنشأ في خلال حرب ضروس لا ينهج نهج الواعظ بل نهج الطبيب الذي يفحص ويشخص . وفضلاً عن ذلك فانه لا يعالج الأحداث المتشابهة بطريقة واحدة ، فهو تارة يبرز عامداً لوناً من فظائع الحرب وآلامها ، وتارة يمعن في ابراز لون آخر أشد هولاً من الأول . وهو عادة يكتفي بمثل واحد لتصوير ناحية بعينها من نواحي هذا الجانب المفجع من الحرب ، على نحو ما يكتفي بوصف أحداث ثورة كوركيرا لتصوير طبيعة الصراع الحزبي الذي نكبت به المدن الاغريقية في القرن الخامس وبلغ ذروته في أثناء الحرب البلوبونيزية ، دون أن يأتي على

وصف أحداث الثورات المماثلة التي وقعت في خلال هذه الحرب ، أو يكتفي برسم شخصية كليون وتصرفاته لتصوير الديماجوجية التي كانت الديمقراطيات الاغريقية نهباً لها ، دون أن يلقي بالاً إلى أضراب كليون وما كان أكثرهم . ومع أن كليون احتل مكان الصدارة في أثينا لمدة خمس سنوات كانت من أدق مراحل الحرب ، فان توكيديدس اكتفى بتقديمه ثلاث مرات فقط على مسرح السياسة ليرسم صورته رسماً واضحاً لا مزيد عليه [1] .

وسواء عند تناول أسباب الحرب أو عند رواية أخبارها ، كلف توكيديدس بمشكلة نشأة القوة السياسية ونموها والحفاظ عليها وما ترتب على ذلك من مشاكل أخرى أخصها اهدار القيم الانسانية الرفيعة في مجالي الأخلاق والعدالة . ولا يدع توكيديدس مجالاً للشك في أن نشوء الأزمة بين أثينا وأعدائها تقع تبعته على كاهل الذين كانوا يوجهون سياسة الطرفين المتنازعين ، وأنه قبل كل شيء يكمن في طبيعة النفس البشرية فهي تنزع إلى السيطرة على من يرضخ مثل ما تنزع إلى درء الاعتداء وكذلك إلى الحفاظ على المكاسب بدافع من الكرامة والخوف والمصلحة الذاتية ، وأن ذوي الحكمة يأخذون في الاعتبار وجود هذه النوازع بين ظهرانيهم وكذلك بين ظهراني غيرهم ويستخدمون قوتهم أو يضعون سياستهم تبعاً لذلك ، وأنهم إذا استخدموا ذكاءهم أدركوا أن النصر لا يمكن للحق أو للقوة أن تكفل احرازه ، فصروف الحرب وملابساتها أمور يتعذر التكهن بها ، ولذلك فان مصير الحروب تقرره أخطاء أحد الفريقين أكثر مما يقرره تفوق قوة الفريق الآخر . ومن الجلي أن توكيديدس ينظر إلى المشكلة الرئيسية باعتبارها جزءاً من الطبيعة البشرية حتى تلك التي لا يسيطر عليها حب السلطة سيطرة تامة ، فالمعروف أن الأثينيين

(1) Finley, op. cit., pp. 11 — 12

– وهم أكثر الناس حباً في السلطة – كانوا يعتبرون العدالة أسمى مظاهر دولتهم ويفاخرون بأن هذه الدولة دولة دستورية حديثة أساسها العـدل لا الاستبداد . ويلاحظ توكيديدس أن الفيصل الأخير في تسوية الخلافات بين الدول هو القوة لا الحق ، ذلك أنه إذا تعادلت قوى الفريقين تقريباً أدى الخلاف إلى نشوب الحرب بينهما ، أما إذا تفوقت دولة على أخرى تفوقاً ظاهراً فانها تفرض سلطانها عليها . ويضرب مثلاً للحالة الأخيرة بجزيرة ملوس الصغيرة وهي التي أرادت أن تقف على الحياد في الحرب البلوبونيزية ، لكن أثينا وقد دانت لها سيادة البحار بطشت بملوس ، فعصف ذلك بما تبقى لدى الاغريق من عطف على قضية أثينا . والواقع أنه لم يمح مرور قرن من الزمان أثر هذا الحادث من نفوس الاغريق فظلوا على بغضهم وكراهيتهم لأثينا .

وهذا حادث قليل الاهمية في ذاته لكنه يعطينا نموذجاً لطريقـة توكيديدس ، فهو يختار الأحداث لا تبعاً لأهميتها الذاتية وإنما تبعـاً لقدرتها على تصوير المشاكل العامة ، ويستفيض في شرحها بكل ما أوتي من قدرة على التفكير السياسي الناضج . وفي عرض المشكلة التي يصورها حادث جزيرة ملوس لجـأ توكيديدس للمرة الوحيدة في مؤلفه إلى طريقة السفسطائيين ، وهي الحوار بين خصمين يقرعان الحجة بالحجة [1] . ولا سبيل إلى الشك في أنه قد ألـّف هذا النقاش تأليفاً ليخلد على لسان زعماء هذه الجزيرة والسفراء الأثينيين صورة تفيض بالحيوية للصراع الأبدي بين الحق والقوة ، فنرى أهل الجزيرة الأبرار وقد أدركوا عبث مناشدة روح الانصاف عند الأثينيين يحاولون التدليل لخصومهم الأقوياء على أنه من الأوفق لأثينا مراعاة جانب الاعتدال في استخدام قوتهـا الفائقة ، فقد يأتي اليوم الذي تضطر فيه إلى مناشدة العدالة واحترام القيم

(1) V, 85 — 113.

الإنسانية . ولكن الأثينيين وقد أصموا آذانهم عن هذا التحذير ، يجيبون بأن الحفاظ على هيبة امبراطوريتهم يقتضي ادخال الجزيرة في حظيرة هذه الامبراطورية لأن العالم سيرى في بقاء الجزيرة على حيادها دليلاً على ضعف الامبراطورية . ويمضي السفراء الأثينيون فيحذرون أهل ملوس من عبث ارتداء مسوح البطولة ، ذلك أنه ليس في ميدان السياسة الاستعمارية الحديثة مجال لمراعاة قواعد الفروسية القديمة ، وينبهون أولئك التاعسين إلى حيث الاعتماد على الآلهة أو الاسبرطيين ، فالآلهة دائماً في صف الأقوياء ، والأسبرطيون أنفسهم لا يجتنبون ما يسميه الناس عملاً مشيناً إلا إذا كان ذلك في صالحهم .

إن سياسة الأمر الواقع التي اتبعتها أثينا وهي في أوج قوتها قد أعطاها توكيديدس كل ما ينطوي عليه المذهب الفلسفي من العمق والقوة ، عندما جعل الأثينيين يبررون حق القوى المتفوق بقانون الطبيعة ، أو بعبارة أخرى بشريعة الغاب ، وينزلون الآلهة من عليائها بوصف كونها حماة العدالة إلى مصاف الرموز التي تتجسد فيها قوة الانسان وبطشه . وهكذا حاول الأثينيون تغطية التعارض الشديد بين سياستهم وقواعد الدين والأخلاق ، وهي التي كانوا يعتبرونها ملاذ الضعفاء . وعلى هذا النحو يرينا توكيديدس كيف بلغت سياسة القوة الأثينية ذروة نموها المنطقي ، وكيف تفهمها المدافعون عنها . وتدل الطريقة السفسطائية التي اختارها مؤرخنا لعرض مشكلة الصراع بين الحق والقوة على تعذر الوصول إلى قرار حاسم فيها . ذلك أن قوة المناقشات السفسطائية ليست في الوصول إلى حل للمشاكل وإنما في بسط وجهتي نظر الجانبين بسطاً واضحاً قدر المستطاع . والجديد فيما كتبه توكيديدس عن حادث جزيرة ملوس ان هذا هو أول عرض صريح للمذهب القائل بأن الحق هو القوة ، وهو مذهب كان غريباً عن العقلية الاغريقية في العصور السابقة واستغل لأول مرة في القرن الخامس قبل الميلاد ، عندما أصبح نوعاً من الحق

الطبيعي أو القانون الطبيعي الذي يتعارض مع قواعد الأخلاق السائدة .

ونرى مثلاً رائعاً لتفكير توكيديدس السياسي الناضج وبراعته الفائقة في التحليل والوصف فيما ضمنه كتابيه السادس والسابع عن حملة أثينا ضد صقلية ، ولا غرو فان ذلك يعتبر أعظم جزء في مؤلفه . وقد لاحظ الباحثون جميعاً أنه بفضل ما توافر له من الخبرة العسكرية استطاع أن يبز كل المؤرخين القدماء في وصف العمليات الحربية وصفاً دقيقاً وأن يلمس كل نواحي الضعف تقريباً في نظم الاغريق العسكرية ، لكنه مع الأسف العميق أغفل شرح هذه النظم مثل ما أغفل شرح النظم المالية برغم ما هنالك من صلة وثيقة بين كل هذه النظم والحرب التي درسها هذه الدراسة العميقة المستفيضة .

وليس من الاسراف في الرأي القول بأن أشباح حملة صقلية تطل على القارئ من بين ثنايا الكتاب الأول حين يحدثنا توكيديدس عما أوصت به جزيرة كوركيرا الأثينيين قبل بداية الحرب من قبول محالفتها لأنها تمتلك أسطولاً قوياً ولأن من يملك زمام هذه الجزيرة يسيطر على الطريق البحري إلى صقلية [١] . ويكاد القارئ أن يرى أشباح حملة صقلية مرة أخرى في الكتاب الثاني حين يتحدث توكيديدس عن العزوف عن سياسة بريكلس بعد موته والاقدام على مخاطرات جريئة اشباعاً للأطماع الشخصية وجرياً وراء المنافع الذاتية مما كان له أسوأ الأثر في سير الحرب [٢] . وإذا كانت الحملة التي أرسلتها أثينا ضد صقلية [٣] في عام ٣٢٤ تبدو قليلة الأهمية ، فاننا نرى توكيديدس يجعل الزعيم السرقوسي الكبير هرموقراطس يحاول بعد ذلك بقليل في مؤتمر جيلا (Gela) في عام ٤٢٤ تسوية الخلافات الناشبة بين مختلف مدن

(1) I, 32 — 36. (2) II, 65. (3) IV, ; VI, 1, 1.

صقلية لتتحد جميعاً تحت زعامة سرقوسة (Syracuse) حتى تستطيع مواجهة هجوم أثينا عليها في المستقبل [1] . ومما تجدر ملاحظته أن هرموقراطس استخدم في هذه المناسبة الحجج نفسها التي استخدمها فيما بعد أمام الجمعية العامة في كمرينا [2] عندما أنفذت أثينا حملتها الكبرى إلى صقلية . ويبين أن توكيديدس قد أضاف اشاراته التمهيدية عن حملة صقلية حين راجع – بعد انتهاء الحرب – مسودته عن الفترة الأولى على أساس أن هرموقراطس كان السياسي الصقلي الوحيد الذي اتصف ببعد النظر ورأى منذ أمد بعيد أن الخطر آت لا مفر منه ، وذلك لادراكه أن أثينا ستتطلع حتماً إلى بسط سيادتها على صقلية ، وتقديره أنه لا يجوز توجيه أي لوم اليها إذا ما دعتها إلى التدخل إحدى مدن تلك الجزيرة وفي هذا دلالة على أنه حتى خارج أثينا كان الناهون يفكرون بأسلوب سياسة الأمر الواقع .

وبعد صلح نيقياس دعت إجستا أو سجستا (Egesta, Segesta) وكانت إحدى مدن غرب صقلية ، الأثينيين لشد أزرها ضد جارتها سلينوس ، وكانت قد استعانت بسرقوسة [3] . وقد استجاب الأثينيون إلى هذه الدعوة ليتخذوا منها ذريعة لفتح صقلية [4] . وعندما رأى نيقياس ما استقر رأي مواطنيه على القيام به ، انتفض يخطب فيهم محذراً من مغبة هذه المخاطرة [5] . وعندئذ هب الكيبيادس واقفاً ليشرح ما ينطوي عليه مشروعه الخطير من مزايا ، باعتبار أن فتح صقلية أضمن وسيلة للفوز بالسيطرة على كل بلاد الاغريق ، وباعتبار أن بسط رقعة الامبراطورية الأثينية السبيل الوحيد للمحافظة عليها ، لأن كل توقف في الاتساع يحمل في طياته خطر الانهيار [6] . وتعتبر هذه اللحظة التي

---

(1) IV, 59 — 64. (2) VI, 76 — 80. (3) VI, 6.

(4) VI, 8; 6, 2. (5) VI, 9 — 14. (6) VI, 16 — 18.

وقف فيها الكيبيادس خطيباً في الجمعية الشعبية الأثينية بعد تحذيرات نيقياس من أدق اللحظات وأكثرها ازدحاماً بالمعاني في قصة توكيديدس ، وقد عمد إلى أن يذكرنا بكل ما قيل قبل الحرب عن ضرورة بسط سلطان أثينا دون توقف وعما اتصف به الخلق الأثيني من الشجاعة والجرأة والحيوية الدافقة . والكيبيادس يُعتبر صورة مجسمة لهذه الصفات ، وهذا يفسر قدرته على اقناع الجماهير برغم أنه كان مكروهاً لسوء سلوكه في حياته الخاصة . ويرى توكيديدس في القاء مقاليد الزعامة إلى شخص يجتمع فيه من الصفات مثل ما اجتمع في الكيبيادس وتوقف نجاح الحملة الطموحة عليه أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى سقوط أثينا [1] . ومن الخطل أن نتصور أن توكيديدس اعتبر نكبة أثينا في صقلية عقاباً أنزلته السماء بها جزاء اتساعها الاستعماري ، فهو أبعد ما يكون عن الاعتقاد بأن للسماء دخلاً في تصريف شؤون الأرض ، أو أن القوة شيء سيء في حد ذاته ، ذلك أن قوة أثينا هي التي أنقذت الأغريق من الفُرس وساعدت على رخائها المادي وتقدمها الحضاري ونشر حضارتها في أرجاء العالم الاغريقي ، بيد أن سوء استخدام هذه القوة هو الذي أفضى إلى البطش بالضعفاء وفي النهاية إلى النتيجة المنطقية المحتومة ألا وهي القضاء على هذه القوة ذاتها ، فضلاً عما كان لنمو هذه القوة من آثار معنوية سيئة بدأت بتعود المواطنين على إصدار قرارات ظالمة في الشؤون العامة وانتهت بتفشي العدوى تدريجاً في المعاملات الشخصية . وفي رأيه أن حملة صقلية كانت سلسلة من الأخطاء السياسية ، فهو بوصفه فيلسوفاً سياسياً كان يعتقد أن الجماهير تميل دائماً نحو المشروعات الخيالية الجذابة ، وان واجب القادة هو توجيه هذه النزعة الاتجاه السليم . وفي هذا الموقف ألهب الكيبيادس أسوأ النزعات في مواطنيه فلم يستجيبوا

(1) VI , 15 .

إلى صوت العقل . ولم تكد الحملة تقلع من أثينا حتى استنفر خصوم الكيبيادس شعور الأثينيين الديني ضده فقرروا استدعاءه لمحاكمته ، وإذ علموا بأنه فر هارباً نجاة بحياته قرروا اعدامه [١] ، ولم تلبث أن آلت القيادة العليا للحملة إلى نيقياس [٢] ، مع أنه كان أشد معارضيها وأبعد الناس عن الايمان [٣] بها ومن ثم أقلهم صلاحية لقيادتها إلى النصر . ومما تجدر ملاحظته أنه إذا كان عالم توكيديدس عالماً يدير دفته ويقرر مصائره الرجال لا النساء أو الآلهة ، فانه مع ذلك لا يغفل بيان أثر المشاعر الدينية في مجرى الأحداث كالنتائج الفادحة للسخرية من الطقوس الدينية السرية وتشويه تماثيل الإله هرمس في أثينا قبيل ابحار الحملة الكبرى إلى صقلية [٤] ، وهو ما اتهم الكيبيادس بارتكابه ، والنتيجة الحاسمة لتأخير انسحاب الأثينيين في صقلية في عام ٤١٣ سبعة وعشرين يوماً بسبب خسوف القمر [٥] .

ويعطينا توكيديدس صوراً نابضة بالحياة لما أثاره في الأثينيين تأهب الحملة للسفر من العواطف المتضاربة ، فقد كانوا بين فرح مستبشر ووجل مشفق [٦] ، وما نشره بينهم جميعاً من الفزع واليأس نبأ الكارثة التي منيت بها الحملة وذهبت بكل ما كانت أثينا تعتز به : أسطولها واحتياطيها المالي وهو الذي استخدمته في إعداد الحملة [٧] ، وما عاناه رجال الحملة من أهوال لعله كان من أبشعها ما حاق بهم عند نهر أسيناروس [٨] (Assinarus ، ويسمى حالياً فالكونار أو فيومي دي نوتو) وقد تدافعوا اليه ليطفئوا ظمأهم ويحاولوا عبوره تخفيفاً لضغط العدو عليهم . وفي لهفتهم على تحقيق بغيتهم اضطربت صفوفهم

(1) VI, 27 — 29; 53; 60; 61. (2) VI, 103
(3) VI, 8 — 14; 19 — 24, 1; 34, 6; 47. (4) VI, 27 — 29.
(5) VII, 50, 4. (6) VI, 30 — 33. (7) VIII, 1.
(8) VII, 84.

واختل نظامهم مما سهل على العدو أن ينقض عليهم ويعمل السيف في الآلاف منهم ، فاختلطت دماؤهم بمياه النهر وقد عكرتها أيضاً سنابك الخيل ومع ذلك فان الأحياء منهم كانوا يتقاتلون على شرب هذا المزيج الكريه .

وكما عزا توكيديدس نكبة أثينا في صقلية إلى سلسلة من الأخطاء الجسام ، فانه عزا كذلك هزيمتها النهائية في الحرب إلى سلسلة من الأخطاء الحيوية التي لاحظها وحللها لايمانه بضرورة تعرف الأخطاء بعد وقوعها ، لأن اغفال ذلك ينطوي على انكار الخبرة السياسية واهدار فرص ثمينة للافادة من دروس الماضي . وقد يسر عليه مهمته أنه لم يتخذ من حكمته الفائقة وحدها أساساً للحكم بل استمد هذا الأساس أيضاً من حكمة بريكلس وهو الذي حرض أثينا على خوض غمار الحرب وكان في استطاعته ، وفقاً لاعتقاد توكيديدس ، أن يقودها إلى النصر .

ولما كان توكيديدس لا يدخل في تقديره إلا الأسباب الطبيعية ، أي دوافع البشر وامكانياتهم ، فانه يعلق أهمية كبيرة على الآثار المترتبة على خلق الأفراد وقدراتهم في توجيه شؤون مجتمعاتهم ، دون أن ينزلق إلى تسجيل ما تلوكه الألسن عن سيرهم . فلا عجب أن توكيديدس يعتقد أن نتيجة الحرب البلوبونيزية توقفت على حكمة زعماء الفريقين المتقاتلين أكثر مما توقفت على مقدرة الجيوش والأساطيل . ففي الكتاب الثاني بعد أن يورد الخطبة التي ألقاها بريكلس [1] واستحث فيها مواطنيه على مواصلة الكفاح وقد هدهم القتال وفت الطاعون في عضدهم فضعفت معنوياتهم ضعفاً شديداً إلى حد أن اليأس خيم عليهم ، يقارن بين هذا الزعيم الفذ وكل الذين أعقبوه في تزعم الأثينيين [2] ، فيحدثنا بأنه طالما

---

(1) II, 60 — 64. (2) II, 65.

تولى بريكلس زعامة أثينا وحافظ على سلامتها في السلم وفي الحرب على السواء وجنح بها نحو الاعتدال ، وأنه هو وحده الذي أحسن فهم المهمة التي كانت أثينا تواجهها في حربها مع البلوبونيزيين ، فقد جعل سياسته تستهدف تجنب تعريض البلاد لمخاطر لا داعي لها ، وذلك بعدم الاقدام على مغامرات خطيرة ، وتفادى توسيع رقعة الامبراطورية في أثناء الحرب ، مع العناية في الوقت نفسه بالأسطول . وأما خلفاؤه فانهم ساروا على نقيض ذلك ، فقد دفعتهم الأطماع الشخصية إلى تنفيذ مشروعات ضخمة تكسبهم المجد إذا نجحت وتضعف مقاومة البلاد إذا أخفقت . وهذه ادانة صريحة لالكيبيادس الذي وجه اليه هذا الاتهام زميله النزيه الحذر نيقياس في أثناء مناقشة مشروع حملة صقلية [1] وهذه المناقشة تبين أنه لو كان يكفي الزعيم ليملك زمام الجماهير أن يكون حصيف الرأي وعلى خلق كريم لتوافرت اذن لدى نيقياس صفات الزعامة ، لكن الواقع غير ذلك ، إذ أن الكيبيادس النزق المجرح كان أقدر من غريمه على الزعامة ولو أنه قاد بلاده إلى المخاطر ولم يفعل شيئاً لا يستفيد من ورائه . ومع ذلك فان ما اتصف به توكيديدس من الانصاف أبى عليه إلا أن يسجل اعترافه بالخدمة الجليلة التي أداها الكيبيادس لوطنه في عام ٤١١ عندما كبح جماح رجال الجيش والبحرية المتجمعين في ساموس وأقنعهم بعدم الزحف على أثينا للقضاء على حكومة الأوليجاركية وهي التي كانت تتولى حكم أثينا عندئذ . وقد فعل الكيبيادس ذلك حتى لا ينتهز البلوبونيزيون هذه الفرصة ويستولوا على أيونيا والدردنيل [2] .

وقد أبرز توكيديدس قوة تأثير بريكلس في مواطنيه ، وكفايته على

---

(1) VI, 12,2

(2) VIII, 82; 86.

أن يقودهم لا أن يدعهم يقودوه ، ونزاهته التي استمد منها شجاعته في أن يقول للجماهير الحق الصريح لا ما يحبون أن يسمعوه ، وقدرته على أن يقبض دواماً على زمامهم فإذا حاولوا أن يجمحوا كبحهم وأخافهم ، وإذا خانتهم شجاعتهم أنعش آمالهم واستنهض هممهم . أما خلفاؤه فانه لم يفلح واحد منهم في الفوز بمثل ما كان له من نفوذ ولو موقتاً دون أن يتملق الجماهير ويسترضي نزواتهم . ولذلك فان توكيديدس يرى أنه لافتقار أثينا إلى شخصية تستطيع السيطرة على الجماهير ومغالبة الدستور الديمقراطي أخفقت صقلية ، وذلك فضلاً عن أن بريكلس كان لا يمكنه أصلاً أن يقدم على مثل هذه المخاطرة لأنها كانت تناقض خطته الدفاعية. وفي تقدير توكيديدس أن كل منافسي بريكلس وخلفائه قد واجهوا مثله مهمة توجيه أثينا في أثناء كفاحها من أجل كيانها ، ولكن بريكلس وحده هو الذي كان أهلاً للاضطلاع بهذه المهمة ، لأن بريكلس كان الزعيم ورجل الدولة النموذجي الذي اتصف بأسمى صفات الزعيم السياسي .

والواقع أن عظمة بريكلس تبدو في أجلى صورة بالمقارنة بين حال أثينا في أثناء المراحل الأولى للحرب عندما أتيحت لها الافادة من زعامته ، وبين حالها في أثناء المراحل الأخيرة للحرب عندما افتقر الأثينيون إلى شخصيته القوية وتوجيهه الحكيم ورأيه السديد ، فركبوا رؤوسهم وتوالت النكبات عليهم . وإذا كنا نعتقد أن الصورة التي رسمها توكيديدس لبريكلس كانت ثمرة هذه المقارنة ، فانه يصعب علينا أن نقرر إذا كانت السياسة التي عزاها توكيديدس إلى بريكلس قد رسمها بريكلس نفسه على هذا النحو ، أم أن توكيديدس هو الذي جعل بريكلس ينصح الأثينيين بتجنب التوسع لأنه كان يعرف سياسة بريكلس في هذا الصدد وشهد النتائج التعسة التي نجمت عن مخالفة هذه السياسة في عهد خلفائه . وعلى كل حال فانه يبدو جلياً أنه لم يكن في وسع توكيديدس أن يصف حكمة بريكلس السياسية ويبين أنه لم يرتكب الأخطاء التي ارتكبها خلفاؤه — لم

يكن في وسع توكيديدس عمل ذلك إلا بعد الحرب وإن كان قد جعل بريكلس [1] يحذر الأثينيين قبيل بدايتها من التوسع والتعرض لأخطار لا ضرورة لها ويقول لهم : « انني أخشى أخطاءنا أكثر مما أخشى خطط أعدائنا الحربية . » ولا شك في أن توكيديدس عندما عزا نجاح سياسة بريكلس الخارجية إلى قوة مركزه في أثينا كان متأثراً بما ترتب على تزعزع مركز الكيبيادس الداخلي من نتائج في الخطة الحربية التي رسمها للاستيلاء على صقلية .

ولا جدال في أن توكيديدس هو مؤلف خطبة بريكلس في تأبين ضحايا العام الأول للحرب [2] . وقد كان التقليد المتبع في تأبين الأثينيين الذين يلقون حتفهم في ميدان القتال أن يشيد الخطيب بشجاعتهم لكن توكيديدس انتهز هذه الفرصة ليسجل للأجيال القادمة صورة للدولة الأثينية تبرز خصائص زعيمة الحضارة الاغريقية . ولم يسمح بالقاء هذه الخطبة إلا إلى بريكلس ، رجل الدولة الأوحد في نظره ، وهو الذي توافر له من الصفات ما جعله خليقاً بالتعبير عن روح أثينا . ويجمع الكل على أنه لا تستطيع أي ترجمة أن تنافس قدرة توكيديدس على معالجة هذا الموضوع بمثل هذا اليسر . وإذا كان أحد الباحثين المحدثين [3] رأى في هذه الخطبة « أنشودة من تسابيح العبادة الذاتية المهذبة مستورة وراء قناع رقيق من التواضع والاعتدال » ، فان باحثاً آخر [4] يرى أن هذه الخطبة « لا تصف معالم أثينا بل تضيف اليها أثراً جديداً فهي تبرز وسط مأساة الحرب على هيئة عمل فريد من النثر وكأنه بارثنون آخر

---

(1) I, 144, 1

(2) II, 35 — 46.

٣ لويس ممفورد « المدينة على مر العصور » ترجمة وتعليق ابراهيم نصحي ، ص ٢٦٢ (الجزء الأول) .

(4) Shotwell, op. cit., p. 197.

شيد لا ليحتوي تمثال الإلهة الخرافية حامية المدينة وإنما ليكون هيكلاً يخلد روح مواطنيها .»

وقد تحاشى توكيديدس كل توافه الخطابة الرسمية وركز همه على ما امتاز به وطنه في ذلك العصر من الحيوية الدافقة وتعدد نواحي النشاط العقلي والأدبي والفني وجعل من كل ذلك وحدة جليلة واحدة . ذلك أن توكيديدس صور الأثينيين في صورة شعب تسوده وحدة الهدف مع تمتع كل مواطن بحريته في جو من النظام الذي لا يضطرب وإن كان يبدو دواماً أنه على وشك ذلك . ويمضي توكيديدس فيصف أثينا بأنها مركز اشعاع الحضارة في العالم الاغريقي ، فيقول في سياق هذه الخطبة الخالدة : «وجملة القول إني أعتبر أثينا مدرسة بلاد الاغريق .» [1] وهذه العبارة التي يجمع الباحثون على أن توكيديدس كتبها بعد هزيمة أثينا في الحرب تنطوي على ما أدركه بعقله الناضج وفكره الثاقب من أنه برغم هذه الهزيمة الساحقة فان أثينا ستظل محتفظة بزعامة الاغريق الحضارية وستجد في نشر نفوذها الحضاري وتخليد أثرها الروحي عزاء لها عن هزيمتها الحربية وضياع سيادتها السياسية .

ويعتبر توكيديدس الدستور الأثيني ابتكاراً أصيلاً لم يحتذ حذو أي دستور آخر بل هو أحرى بأن تنسج الدول الأخرى على منواله [2] . ويرى أن الديمقراطية الأثينية على عهد بريكلس لم تكن تحقيقاً آلياً للمساواة ، وهي التي يعتبرها البعض أسمى مراتب العدالة وينعتها البعض الآخر بأنها أدنى مراتب الظلم . ويعبّر عن فكرة توكيديدس خير تعبير ما وصف به نظام أثينا السياسي من أنه لم يكن ديمقراطية إلا في الاسم ، أما في الواقع فان بريكلس غدا بالتدريج المواطن الأول في أثينا وحاكمها

(1) II,41, 1
(2) II, 37, 1.

الحقيقي [1] ، وهو الأمر الذي جعله يقول في خطبة التأبين بأنه من حيث الشؤون الخاصة كل المواطنين سواسية أمام القانون ، أما من حيث الشؤون العامة فان الصدارة من حق أصحاب المواهب الممتازة دون نظر إلى أي اعتبار آخر [2] . وهذه الفكرة تقرر من ناحية حق كل مواطن في ممارسة حقوقه السياسية ، ومن ناحية أخرى عجز جمهرة الشعب عن حكم امبراطورية كبيرة وحق الفرد الممتاز في تولي الحكم . وهكذا يكون توكيديدس قد وضع نواة بعض النظريات السياسية التي نادى بها فيما بعد أفلاطون وأرسطو .

ولا جدال في أن اعجاب توكيديدس ببريكلس إلى حد بلغ به إلى مرتبة الكمال ينم عن جنوح توكيديدس مرة أخرى عن الحيدة التي يتسم بها بوجه عام . ولكن لعل له عذراً ، فالفارق جد شاسع بين حكمة بريكلس المتسمة بشجاعة المتبصر ، وبين ديماجوجية كليون المتهور أو نزاهة نيقياس المقرونة بِخَوَر العزيمة أو جرأة الكيبيادس المشوبة بالمنفعة الشخصية .

* * *

ويتضح مما سلف أن توكيديدس أول مؤرخ طبّق أساليب البحث العلمي تطبيقاً دقيقاً على دراسة أحداث عصره . ولذلك فان الباحثين يتفقون على أنه إذا كان هرودوتوس يعتبر أبا التاريخ فان توكيديدس يجب اعتباره ابا النقد التاريخي ، كما يتفقون على أنه قد أصاب نجاحاً باهراً في عمله ، ذلك أنه لا يختلف اثنان في الاشادة بأسلوبه الممتاز ، وقدرته على الوصف ، ودقته البالغة في تحري صحة الوقائع وتواريخها ، وتساميه بوجه عام إلى مستوى رفيع من الحيدة والانصاف . ولا يقلل من شأنه

---

(1) II, 65, 9. (2) II, 37, 1.

ما سبقت الإشارة اليه من انحرافه مرات معدودات عن هذا المستوى ، أو مؤاخذته على طريقته في التأريخ فهي برغم ما يشوبها من نقص وقصور صاحبة فضل كبير على المحدثين في اعادة تأريخ كل حوادث تاريخ الاغريق القديم .

وإذا كنا لا نقر طريقته في تفسير الحوادث بما اصطنعه من خطب أو محاورات أجراها على ألسنة قوم كثيرين ، ولا نشاركه اعتقاده أن التاريخ يعيد نفسه ، ولا نتفق معه في الحكم على بعض المشاكل السياسية ، فاننا نعتقد أن كل ذلك لا ينتقص من أهمية تاريخه الخالد وقيمته العظيمة ، ولا يحط من قدر حكمته السياسية وتفكيره العميق ونظرته الثاقبة .

ولا يجوز لنا أن ننسى أن هذا الفيلسوف السياسي الذي خلق التاريخ السياسي كان ينظر إلى الوقائع باعتبار أنها وسيلة لغاية وهي القاء شعاع من الضوء عليها وتفسيرها تفسيراً يستند إلى النطق السليم ، فقد كان غرضه الأعلى البحث عن الأسباب الحقيقية للحوادث . ومن الانصاف أن نقرر أن ظواهر الأمور لم تخدعه مرة عن بواطنها . ولما كان التاريخ في نظره تاريخ جماعات سياسية ، فانه كان يؤمن بأنه لا يمكن فهمه فهماً صحيحاً إلا على ضوء العوامل السياسية والاقتصادية والنفسية . وأما تداخل الآلهة والنساء في تكييف مجرى الحوادث فقد استبعده وإن لم يستبعد تأثير المشاعر الدينية في ذلك ، وفي الوقت نفسه أبرز أهمية أخلاق الزعماء وكفايتهم في هذا الشأن . وقد برع توكيديدس إلى حد يفوق الوصف في تصوير عواطف الجماهير وعقليتها تصويراً يكشف عن قدر من الازدراء يماثل ما تتكشف عنه مسرحيات شكسبير .

ونحن لا نلمس فيما كتبه توكيديدس مواهبه العقلية الممتازة فحسب ، بل نلمس أيضاً انسانيته الرفيعة وأحاسيسه السامية ، فهو يمقت الحرب ويحب السلم ، وتتقزز نفسه مما كان يصاحب الصراع الحزبي من فظائع

وانهيار للقيم المعنوية ، ويكره سياسة وطنه الاستعمارية ، ويفزع من المظالم التي أنزلها مواطنوه الأقوياء بأهل جزيرة ملوس الضعفاء ، ومع ذلك فانه يحب وطنه إلى درجة العبادة على نحو ما يتجلى بأروع صورة في خطبة التأبين . ومما يجب توكيده أن هذه الوطنية السمحة التي لم تعمه عن أخطاء وطنه لم تنأ بـه كذلك عن انصاف أعداء هـذا الوطن الحبيب .

وإذا كان توكيديدس قد أهمل بعض جوانب تاريخ الحقبة التي كتب عنها ، وذلك هو شرح النظم المالية والعسكرية وتصوير الحياة الاجتماعية والعقلية السياسية في كل تلك الدول التي اشتبكت في ذلـك الصراع المرير ، ممـا يترك في النفس أسى ولوعة لما حرمنا الحصول عليه من مؤرخ دقيق أمين له مثل هذه النظرة الثاقبة وكل هذه القدرة على تحري الحقيقة والوصف والتحليل والعرض ، فانه تنعكس في كتابته صورة جلية واضحة المعالم لبيئته وما يعتلج في صدورها من عواطف وما يجول في خواطرها من أفكار وما يسيطر عليها من أخلاق وعادات . وهو في هذه الناحية أيضاً يشابه هرودوتوس إلى حد ما برغم كل مـا بينهما من اختلاف يبرزه بشكل ملموس تمثال نصفي مزدوج في متحف نابلي يصور توكيديدس وهرودوتوس وقد أولى كل منهما ظهره إلى الآخر [١] .

وأخيراً ، لا جدال في أنه بفضل كل ما توافر لتوكيديدس من صفات قـد بلغ مستوى لم يرق اليه مؤرخ آخر في العالم القديم [٢] .

ابراهيم نصحي

---

(1) Macan, C.A.H., V, p. 419.

(2) Jowell, Thucydides, Introd., p. XVII; Bury, Hist. of Greece, 1941, p.397; Shotwell, op. cit., p. 209; Rose, op. cit., p. 302; Cary and Haarhoff, op. cit. pp. 248 — 9; Hammond, Hist. of Greece, 1967, pp. 428 ff.